أوضاع الهند في فترة الاستعمار البريطاني من خلال المجموعة الشعرية "қиссаи ҳиндустон" "قصة الهند" للأديب الطاجيكي ميرزا تورسون زاده

د.أحمد سامي عنتر (*)

ملخص البحث

يتناول البحث انعكاسات قضايا الهند في مجموعة "قصة هندوستان" "قصة الهند" للأديب الطاجيكي ميرزا تورسون زاده، التي كتبها الشاعر بعد عودته من زيارة الهند عام ١٩٤٧م، وقد هاله وقتها ما رأى من حال الهند تحت وطأة الاستعمار البريطاني، فأراد أن يسجل تجربته ويعبر عن شقاء شعوب شبه القارة الهندية وسوء أحوالهم تحت نير الاستعمار الإنجليزي.

اعتمد البحث على المنهجين الاجتماعي والتاريخي، لمناسبتهما لموضوع الدراسة، الذي يُعنى بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وينقسم إلى ثلاثة مباحث رئيسية، المبحث الأول بعنوان "القضايا الاجتماعية" ويناقش أربع قضايا هي: التمييز الطبقي، التشرد والعدالة الاجتماعية، المبحث الثاني بعنوان "القضايا الاقتصادية" ويناقش قضية نهب الثروات وقضية الركود الاقتصادي، ثم البحث الثالث بعنوان "القضايا السياسية، ويناقش قضايا ظلم المستعمر وطمس الحضارة والانقسام بين فئات الشعب الهندي.

الكلمات المفتاحية: الهند – الاستعمار البريطاني – الأدب الطاجيكي– ميرزا تورسون زاده– قصة هندوستان – قصة الهند

(*) أستاذ مساعد، قسم اللغات الشرقية وآدابها، كلية الآداب – جامعة عين شمس.

Abstract

The research investigates the India's conditions on the Poetry collection (*The Story of India*) by the Tajik writer Mirza Torsunzadeh. The collection was written by the poet after his return from a visit to India in 1947. He was so appalled by the nation's plight under British colonial rule at that time that he sought to document his experience and convey the suffering endured by the people of the Indian subcontinent under the yoke of British colonialism.

The research employed social and historical frameworks, as they are well-suited for the subject of the study, which is concerned with social, economic and political issues. The study is divided into three primary sections. The first section, titled "Social conditions," examines four issues: class discrimination, poverty, homelessness, and social justice. The second section, titled "Economic conditions," discusses the issue of plundering wealth and the issue of economic recession. The third, titled "Political conditions," investigates issues of colonial injustice, obliteration of civilization and division among the Indian people.

Keywords: India, British colonialism, Tajik literature, Mirza Torsunzadeh, *The Story of India*

مقدمة

إنَ توّلي أمور الدول والممالك من قبل غير الأكفاء دائماً ما يعود بالسلب على البلاد وأهلها، ويتجه بهم إلى الضعف والتراجع. وقد كان هذا حال دولة المغول في الهند، التي تأسست على يد ظَهير اَلدّين بَابُرْ(١) واستمر حكمها أكثر من ثلاثة قرون، حيث عانت من الضعف والتراجع في أواخر عهدها، وهو ما سمح بانتشار الفساد بين الأمراء، وفتح الباب للتدخل البريطاني في البلاد، الذي بدأ في القرن السابع عشر وأدى للاستعمار البريطاني للهند في عام ١٨٥٧م.

كان مجيء البريطانيين إلى الهند في بداية الأمر من أجل التجارة، وليس السيطرة على الأراضي، وكانوا رجال أعمال وليسوا غزاة، جاؤوا من ثقافة أدنى، وكيان سياسي أضعف، فلم ينظر الهنود إليهم باعتبارهم تهديداً، وهم أيضاً لم يعتبروا أنفسهم هنوداً.(٢) ولكن بمرور الوقت تحول الأمر إلى استعمار كامل للسيطرة على الهند ونهب خيراتها، وتبعه سوء حال الهند تحت نير الاستعمار.

زار الشاعر الطاجيكي ميرزا تورسون زاده الهند عام ١٩٤٧م؛ ذهب إليها وفي مخيلته صورة حاضرة الهند العامرة، مدينة العلم والأدب، لكنه عندما زارها كانت في أسوأ عهودها؛ وراعه ما رآه هناك، وبعد عودته إلى وطنه كتب مجموعته البليغة "қиссаи ҳиндустон" "قصة هندوستان" (قصة الهند)، وصوّر فيها ما رأى في رحلته من أوضاع الهند المزرية.

تتناول مجموعة "قصة الهند" أوضاع شعب الهند وحكومته في ظل الاستعمار البريطاني من وجهة نظر الشاعر، ومن هنا تكمن أهمية المجموعة؛ خاصةً حينما يكون كاتبها أديباً حصيفاً وسياسياً كبيراً مثل ميرزا تورسون زاده، كما تنبع أهمية الكاتب أيضاً من كونه أجنبياً عن بلاد الهند، ومن ثم فهو يرصد حال الهند بعين الحياد، والمجموعة في أصلها مكتوبة باللغة الطاجيكية (بالخط الروسي) والباحث هو من قام بتحويلها إلى الخط الفارسي قبل ترجمتها إلى اللغة العربية، حتى تسهل قراءتها لدارسي الفارسية.

رغم تعدد قضايا الهند ومشكلاتها في فترة ذهاب الشاعر إليها، لكن البحث مقيد بدراسة الأوضاع التي وردت في المجموعة الشعرية؛ وهي لم تتسع لذكر الأوضاع جميعها، ولكنها تناولت عدداً من القضايا المهمة آنذاك. كذلك إن بعض القضايا التي وردت في الدراسة كان مردها في الأساس إلى البناء الاجتماعي للمجتمع الهندي مثل الأوضاع الاجتماعية، ولكن الاستعمار البريطاني استغل هذه الثغرات وعمل على توسيعها لضمان استمرار سيطرته.

استعان الباحث بالمنهج التاريخي لاستجلاء قضايا الهند في ذلك الوقت من خلال المجموعة. وقسّم الدراسة إلى مقدمة حول أهمية الموضوع وأسباب اختياره، يليه تمهيد حول المؤلف والمجموعة الشعرية، ثم ثلاثة مباحث؛ المبحث الأول بعنوان "الأوضاع الاجتماعية" ويناقش قضايا التمييز الطبقي والفقر والتشرد والعدالة الاجتماعية في المجتمع الهندي، وقد جاء اختيار الباحث للبدء بالأوضاع الاجتماعية لكون الشاعر صدّر بها قضايا مجموعته، وكذلك نظراً لتجذر الأوضاع الاجتماعية للمجتمع الهندي منذ ما قبل الاستعمار البريطاني، ومن ثم فتأثيرها يتجاوز البريطانيين ووجودهم في الهند، والمبحث الثاني بعنوان "الأوضاع الاقتصادية" ويناقش قضية نهب الثروات وقضية الركود الاقتصادي، ثم المبحث الثالث بعنوان "الأوضاع السياسية"،

ويناقش قضايا ظلم المستعمر وطمس الحضارة والانقسام في المجتمع الهندي، يليه خاتمة حول ما انتهى إليه البحث من نتائج، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.

تمهيد

ميرزا تورسون زاده، من أبرز شعراء الاتحاد السوفيتي وأكثرهم نفوذاً، وهو من بين الأدباء والشعراء القلائل الذي تم تناول سيرة حياته وآثاره من جانبه ومن قبل محققي الأدب والأدباء وأصدقائه وتلاميذه المخلصين.[٣] ولد في الثاني من مايو عام ١٩١١م في قرية قرطاغ بناحية حصار. أنهى دراسته بدار المعلمين الطاجيك بناحية طشقند عام١٩٣٠م. عمل مديراً للشعبة العامة وكاتباً بجريدة "جوانان تاجيكستان".[٤]

بدأ تورسون زاده نشاطه الأدبي أولاً في مجال النثر منذ عام ١٩٢٩م، فكتب المقالات والحكايات في الصحف والمطبوعات، وجُمعت نماذج من أعماله النثرية في مجموعة "بَيرقِ ظفر" (راية النصر) (١٩٣٢م). وكانت الموضوعات الأساسية لمقالاته وحكاياته وأشعاره الأولى تنصب حول أحداث الثورة البلشفية والحروب الوطنية والصراعات الطبقية، الحياة الصاخبة ونجاحات بناء العصر الحديث.

صدرت للشاعر العديد من الأعمال الشعرية والنثرية؛ من بينها آثاره المنظومة الضخمة "منظرهاي خجند" (مشاهد خجند)، "به ايجادكاران" (إلى المبدعين)، وصور فيها العمل الجاد المتفاني، وواصل حديثه عن الموضوع نفسه في قصص "آفتابِ مملكت" (شمس المملكة) (١٩٣٦م)، "خزان وبهار" (الخريف والربيع) (١٩٣٧م).

طُبعت مجموعة تورسون الأخرى بعنوان "شعرها" (أشعار) في عام ١٩٣٩م، وتضم أشعاراً منها ما يتعلق بوصف الوطن "سرودِ جواني" (نشيد الشباب)، "مملكتِ طلاي" (مملكة الذهب)، "آهنربا" (المغناطيس)، الأحداث التي تقع بين الناس "از آتش حذر كن" (احترس من النار)، "خلقِ دلير" (الشعب الشجاع)، "به دخترِ اسطريه" (إلى الفتاة الأسطورية) وغيرها. كما تحدثت سلسلته ومنظوماته الشعرية عن ماضي دولة الطاجيك وحاضرها وكشف ثروات البلاد، عن الأبنية والإنشاءات العظيمة للجمهورية "وادي حصار" (وادي حصار)، "به

كوهسارِ تاجيك" (إلى جبل الطاجيك)، "گل ميكند" (يزهر)، "آمد كَنَل" (جاءت القناة) (١٩٤٠م) وغيرها.

احتلت الأغاني الوطنية ومحبة الناس الصدارة في إبداعات تورسون زاده خلال سنوات الحرب الوطنية الكبرى، واشتهرت في سنوات الحرب أشعاره الوطنية "خَيْر، مادرِ عزيز" (خيرٌ، أمي العزيزة)، "خاطرهٔ كپَتن" (ذكرى الكابتن)، "همشيرهها" (أخوة الرضاعة) (١٩٤١م)، "سرچشمهٔ مردانگی" (نبع الشهامة)، "هرگز" (أبداً)، "به جنگ" (إلى الحرب) (١٩٤٢م)، بهادرِ تاجيك" (بطل الطاجيك) (١٩٤٣م)، "فرزندِ تو مياید" (سيأتي ابنك) (١٩٤٤م). وتضمنت قصته "پسرِ وطن" (ابن الوطن) (١٩٤٢م) موضوع حب الوطن، وشاركتها قصة "عروس از موسكو" (عروس من موسكو) المضمون نفسه أيضاً. ونُشرت آثار مختارة للشاعر بعنوان "تحفهٔ جواني" (تحفة الشباب) عام ١٩٤٧م.

سافر تورسون زاده إلى الهند عام ١٩٤٧م، وسجّل تجربته هذه في مجموعته الرائعة "قصهٔ هندوستان" (قصة الهند) (١٩٤٧م)، وعبّر فيها عما رآه في رحلته من شقاء ومعاناة شعب شبه القارة الهندية تحت نير الاستعمار البريطاني،[٥] وحصل على جائزة الاتحاد السوفيتي في الأدب عام ١٩٤٨م عن الجزء الأول من مجموعته الشعرية هذه.

طُبعت فيما بعد عدة مجموعات شعرية وكتب للشاعر، ناقشت موضوعات مهمة مثل الأمور العامة للناس، السلام والأمن والمحبة بين الشعوب، منها "پيغام" (الرسالة) (١٩٤٩م)، "من از شرقِ آزاد" (أنا من الشرق الحر) (١٩٥٠م)، "موجِ تبريكها" (موجة التهاني) (١٩٥١م)، "قصهٔ مشهور" (القصة المشهورة) (١٩٥٤م)، "اثرهاي منتخب" (آثار مختارة) (١٩٥٥م)، "چراغِ ابدى" (المصباح الأبدي) (١٩٥٨م) وغيرها.

من أعمال الشاعر أيضاً قصة "حسنِ ارابهكش" (حسن ساحب العربة) (١٩٥٤م)، وتناقش أحداث بناء الحياة الجديدة، تغير شعور العالم ونظرته نحو شعب الطاجيك، مقاومة بقايا العالم القديم وانتصار الحركات الجديدة للحياة. ومجموعة شعر "صداي آسيا" (صوت آسيا) (١٩٥٧م)، وضمت أهم حوادث الحياة بين الناس في فترة اليقظة والمرحلة الجديدة للحركات

التحررية الوطنية وفترة تمزق السلاسل الاستعمارية، استقلال كثير من شعوب آسيا وأفريقيا. وقد حصل الشاعر على جائزة لينين الأدبية عام ١٩٦٠م عن هذين العملين وتم نشرهما في مجلد واحد عام ١٩٦١م.

في عام ١٩٦٠م طبعت قصته "جانِ شيرين" في جريدة "شرقِ سرخ"، وحصل على جائزة الدولة باسم رودكي عن هذا العمل المليء بالصور الغنائية الجذابة، كما حصل على جائزة كومسمول[٦] طاجيكستان.

في عام ١٩٦٤م كتب بالاشتراك مع ب.رحيم زاده قصة "راهِ نورِ آفتاب" (طريق نور الشمس)، ودعا فيها للمحبة بين الطاجيك والروس. وجُمعت أشعاره في السنوات الأخيرة في مجموعة "جانِ شيرين" (١٩٦٥م). وكانت قصة "از گنگ تا كريمل" (من الغانج حتى الكرملين) ومجموعة أشعار "پاسبانِ آتش" (حارس النار) من بين الروائع التي أبدعها في سنواته الأخيرة.[٧]

كتب تورسون زاده عدة أعمال مسرحية أسهمت بقوة في تطور الدراما الطاجيكية، من بينها: مسرحية "حكم" (الحكم) (١٩٣٥م)، المسرحية الشعرية "خسرو وشيرين" (١٩٣٦م)، المسرحية الموسيقية "شورش واسع" (تمرد واسع) (١٩٣٩م)، أوبريت "عروس" (العروس) (١٩٤٥م)، وفي عام ١٩٦٥م ظهر سيناريو "تاجيك‌فيلم" عن سيناريوه للفيلم البديع "حسن ارابه‌كش"، وأنتجت وأذيعت أفلام "از گنگ تا كرمل" (من الغانج إلى الكرملين) "با امرِ دل" (بأمر القلب) و"صبحِ گنگ" (صبح الغانج) أيضاً من سيناريوهاته.[٨]

أدى تورسون زاده دوراً مهماً في جمع الأدب الشعبي ونشره، فقد نشرت أول مجموعة إبداعية شفاهية شعبية "نمونهٔ فالكلارِ تاجيک" (نماذج من الفلكلور الطاجيكي) (١٩٤٠، ١٩٥٤، ١٩٥٧م) بجهده ومشاركته، كما كتب سلسلة مقالات ورسائل أدبية ونقدية حول القضايا الأدبية المختلفة، الدراما والمسرح في موضوعات السلام والأمن ومحبة الشعوب.[٩]

حازت شخصية تورسون زاده المحبة والشهرة ليس في موطنه طاجيكستان فقط، ولكن في العديد من الدول، وشارك في العديد من الأنشطة السياسية والاجتماعية المهمة، وتولى مناصب

مهمة منها عضو اتحاد كتاب طاجيكستان (١٩٣٤م)، مستشار أدبي لمسرح مدينة خجند (١٩٣٤م)، مدير شعبة التشكيل العامة ومستشار مجلس الكتاب المسرحيين ثم رئيس المجلس في عام ١٩٣٩م، رئيس اتحاد كتاب طاجيكستان (١٩٤٦م)، عضو أكاديمية علوم طاجيكستان (١٩٥١م)، نائب في البرلمان السوفيتي من الدورة الثانية حتى التاسعة، متحدث في مؤتمر أنصار السلام في الدول المختلفة؛ دلهي (١٩٤٧م)، باريس (١٩٤٩م)، فيينا (١٩٥٥م)، ستوكهولم (١٩٥٧م).[١٠]

حصل الشاعر تورسون زاده على العديد من الجوائز، منها جائزة لينين، وسام "العمل الأحمر"، "وسام الشرف"، وفي عام ١٩٦١م لُقب لأول مرة بشاعر طاجيكستان الشعبي، وبطل العمل الاشتراكي في عام ١٩٦٧م، جائزة جواهر لعل نهرو العالمية في ١٩٦٨م، وكان عضو اتحاد الكتاب منذ عام ١٩٣٧م. وتوفى في ٢٤ سبتمبر عام ١٩٧٧م في سن السادسة والستين.[١١]

- **التعريف بالمجموعة**:

"қиссаи ҳиндустон" "قصة هندوستان" (قصة الهند) هي مجموعة شعرية باللغة الطاجيكية كتبها الشاعر بعد عودته من الهند عام ١٩٤٧م، وطُبعت عام ١٩٥١م بمطبوعات دولة طاجيكستان، وتتكون من ثلاث عشرة قطعة شعرية، تتناول رؤية الشاعر لمشكلات الهند في الفترة التي زارها فيها ١٩٤٧م.

ترجع تسمية المجموعة والقطعة الرئيسية فيها بقصة الهند– رغم أنها ليست مجموعة قصصية أو قصة منظومة– إلى تأكيد الشاعر أنه سجّل في مجموعته ما رأى من أحداث خلال زيارته الهند. ويمكن تمثيل موضوعات المجموعة بالشكل التالي:

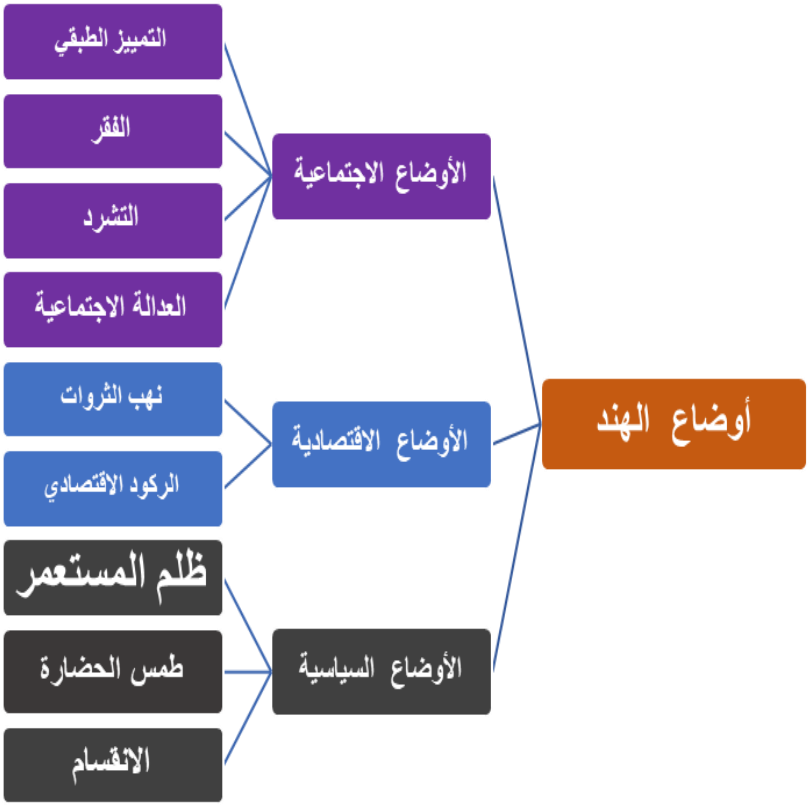
أوضاع الهند
الأوضاع الاجتماعية
التمييز الطبقي
الفقر
التشرد
العدالة الاجتماعية
الأوضاع الاقتصادية
نهب الثروات
الركود الاقتصادي
الأوضاع السياسية
ظلم المستعمر
طمس الحضارة
الانقسام

المبحث الأول: الأوضاع الاجتماعية

كتب الشاعر تورسون زاده رائعته "قصة الهند" بعد عودته من رحلته إلى بلاد الهند، وبدأ الشاعر أولى قِطع المجموعة والمعنونة باسم "بازگشت" (العودة) مُجْمِلاً سوء حال الهند وشعبها، وهو ما دفعه إلى الحزن والأسف، الذي لازمه حتى بعد مغادرته للهند والعودة إلى وطنه، ولم تستطع فرحة الرجوع للوطن أن تنسيه مرارة الظلم الذي رآه في الهند. ويبدأ الشاعر قطعته مجملاً سوء حال الهند، ليترك المجال للتفصيل في القطع التالية، يقول:

أنا سعيد،
لكنني أجرع أحزان الخلق الآخرين،
أستحضر أمام ناظري دولةً منهوبة.
أوصلي سلامنا إلى شعب الهند المظلوم،
يا منظومتي، لو تملكين القدرة على الطيران.
أنا على يقين، أن كل صوتٍ لنا سوف يصلهم،
كل لحنٍ لنا ملئ بالرحمة والوفاء لها
لا يمكن للجبال أن تعيق الطريق مطلقاً،
هواؤنا سوف يحمل إليها الرائحة العطِرة.(١٢)

لخّص الشاعر حال الهند بأنها دولة منهوبة، وهو وصف مصيب لدولة ترزح تحت عبء الاستعمار البريطاني الذي نهب خيراتها فزاد ثراءً بفقرها، ورغم أن هذا الوصف الجامع يرتبط في الأساس بالجانب الاقتصادي، لكنه ينعكس أيضاً على كل نواحي الحياة التي لا تحظى بالاهتمام والانفاق الملائم.

أجاد الشاعر في وصف شعب الهند بأنه شعب مظلوم، فهو وصف جامع في دلالته يعبر عن كل ما يتعلق بالشعب الهندي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية وغيرها. ويبدأ الشاعر بعد هذا الإجمال في تفصيل أبعاد معاناة الهند؛ بادئاً إياها بالأوضاع الاجتماعية التي استهلها بأهم قضية تعصف ببناء المجتمع الهندي؛ وهي قضية التمييز الطبقي:

١- التمييز الطبقي:

إن النظام الطبقي في الهند هو شكل من التنظيم الاجتماعي شاع منذ آلاف السنين، وهو نظام من العلاقات؛ اجتماعي واقتصادي وديني في الوقت نفسه[١٣]. بدأت فكرته في أول الأمر نتيجة لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع؛ فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية بينما يقوم الآخرون بالحروب، وكان من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول ومطالب الحياة حتى يتفرغ الكهان والمحاربون لعملهم، وبالتدريج وجدت الطبقة الرابعة وهي طائفة "الشودرا" التي هي أسفل الطبقات والتي عُرفت عند كتَّاب العربية بطائفة المنبوذين. وقد كانت الفواصل بين الطبقات غير واسعة في بداية حياة هؤلاء القوم، ثم أخذت تتسع وتتشكل على مر الأيام ويوضع لها نظام وحدود.

جاءت فكرة الطبقات– كما جاء في شريعة "منو"– من أن الرب المولى أراد تكاثر الجنس البشري، فخلق "منو"، وخلق من رأسه أفضل الناس وأعظمهم قدسية وهم البراهمة، ومن ذراعه الإكشترية، ومن فخذه الفيشية ومن قدمه الشودرا أو المنبوذين.[١٤] وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكل واحدة من هذه الطبقات أعمالا خاصة. فعهد إلى البراهمة بدرس أسفار الفيدا وتعليمها وتقريب القربان، وإدارة ضحايا الآخرين والعطاء والأخذ، وفرض على الإكشترية حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية، وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك في الشهوات. وخصَ الفيشية بتربية المواشي وإيتاء الزكاة والتضحية، ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحرث إلخ. وأوجب على الشودرا عملاً واحداً فقط وهو خدمة تلك الطبقات".[١٥]

تقع طبقة البراهمة في قمة الهرم الاجتماعي الهندي، وتنحدر طبقة الأنجاس في أسفله، وتتدرج بينهما طبقات المجتمع الأخرى. ولكل طبقة من الطبقات طقوس خاصة ملزمة لجميع الطبقات فيما يتعلق بالطعام والشراب والتعامل الاجتماعي، وهي طقوس مُستمَدة من مبدأ الطهارة والنجاسة على حسب المولد في طبقة خاصة باعتبارها أساس المنازل الطبقية العليا والسفلى، وتشمل عقيدة الطهر والنجاسة كل النواحي الاجتماعية من الطعام، الثياب، المعادن والحِرَف

وغيرها، وكل شيء في المجتمع الهندي يخضع لفكرة الطهر والنجاسة، فالذهب طاهر والفضة أقل طهراً، الحرير طاهر والكتان نجس.(١٦)

تستند مسألة الطبقية في الهند إلى أساس ديني، حيث يرون أن هذه الطبقات خلقها الله على هذا الوضع ومن ثم فهذا التقسيم أبدي، لأنه من صنع الله ولا طريقة لإزالته، وعلى هذا لا يرتفع أي شخص من أي قسم إلى قسمٍ أعلى، وبناءً على هذا، وعلى الاعتقاد بأن الابن يرث نمط أبيه، لا يجوز لرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى من طبقته، لعدم الكفاءة، ولأن أولاده منها سيهبطون إلى مستواه، وهذا إضرارٌ بالتكوين الاجتماعي، ولكن يجوز للرجل أن يتزوج من امرأة من طبقة أقل من طبقته على ألا تكون من الطبقة الرابعة (الشودرا) التي ليست إلا للخدمة، ولا ترقى لأن يتزوج منها أحد أفراد الطبقات العليا الثلاثة؛ فهي أحقر طوائف المجتمع الهندي، وهي محرومة من حقوق الإنسان، وتعيش في مستوى أدنى أحيانا من الحيوان.(١٧)

يؤدي أفراد طبقة المنبوذين وظائف بغيضة مثل تنظيف المراحيض وإزالة القمامة والتخلص من الحيوانات النافقة، ولذلك يُنظر إليهم على أنهم نجسون وملوثون، ومجرد لمسهم يصيب بالدنس والنجاسة. وإذا حدث أي اتصال بين أحد المنبوذين وفرد من الطبقات العليا لأي سبب من الأسباب، يصبح مدنسا، وعليه أن يُغمر أو يغسل بالماء لتطهيره. وفي المجتمعات الصارمة، خصوصا بين أبناء الطبقات الثلاث الأولى، كان على من تعرضوا للمس، المرور عبر طقوس دينية معينة لتنقية أنفسهم من التدنيس الذي تعرضوا له. وإذا دخل المنبوذ إلى المنزل ولمس أغراض أحد أبناء الطبقات العليا، يقومون بغسل أو تنظيف الأماكن التي لمسها المنبوذ أو مشى عليها، وفي بعض الحالات، كانوا يتعرضون للضرب وحتى القتل بسبب ذلك. وكان يعمل لدى أفراد الطبقة الأصغر البارزين (جات) خدم، وظيفتهم الذهاب أو المشي قبلهم وإعلان قدومهم إلى الشوارع، والتأكد من أن الشوارع ستكون خالية من المنبوذين. وللمنبوذين مداخل منفصلة لمنازلهم ويشربون من آبار مياه منفصلة، ويُرى في القرية حي منفصل للمنبوذين، ويجتنب الهندوس لمسهم، ويقترب حال المنبوذين هؤلاء من حال السائلين في أوروبا(١٨)

كان المجتمع الهندي بالإضافة للعوامل الطبقية السابقة، يحمل في داخله بذوراً أخرى للفرقة؛ حيث تفتقد الهند لمقومات الشعب الواحد؛ حيث اللغات المختلفة، والأصل المختلف، والأديان المختلفة، والطبائع والعادات والآمال المتباعدة؛ بالإضافة إلى الحروب التي لم تنطفئ على أرض الهند، وما تخلّفه من حزازات ومرارات في النفوس، ولهذا فمسمى الهند تعبير جغرافي، لا يعبر عن معنى الأمة الواحدة؛ أي وحدة العرق واللغة والمشاعر المؤدية إلى وحدة المصالح.[١٩]

أدرك البريطانيون التنوع الاجتماعي والثقافي في الهند، ولاستغلال الأراضي والسيطرة عليها كان عليهم تحريض الهندوس ضد المسلمين والجماهير ضد الأمراء، فضلاً عن استفزاز الطبقات ضد بعضها البعض لزيادة الانقسامات الطبقية والتفاوت الطبقي بين المجتمع الهندوسي، وتبنّي سياسات تقوض التماسك الوطني في الهند وتثير الانقسام الطائفي.[٢٠]

هكذا يتضح أن الطبقية ظاهرة اجتماعية قامت في البداية على أساسٍ ديني، ثم ترسخت في البناء المجتمع في الهندي، ثم استغلها البريطانيون فيما بعد عند استعمارهم الهند لخدمة مصالحهم الاستعمارية.

يعبر الشاعر عن التباعد والتمييز الطبقي الذي يعد من أخطر آفات المجتمع الهندي، حيث تكمن خطورته في ترسخه في المجتمع ومرجعيته الدينية التي تجعله مقبولاً بين فئات المجتمع حتى من المنبوذين أنفسهم. يقول في قطعة "قصة هندوستان" (قصة الهند):

حكى لي أبي ذات يوم،
قائلاً اسمع القصة يا روح أبيك:
كان في زمنٍ ما خارج سمرقند.
تراءى كوخ أمام عيني شخص.
في ذلك المنزل، الذي كان بعيداً عن الآخرين
كان المصابون بالبرص[٢١] معزولين في مكانٍ واحد.

ولم يكن يُسمح لهم بالمرور
لا من صديق، أو قريب أو نسيب.
لم يكونوا يرون بالنهار والنور
من الدنيا غير الذل والتسول.
إذا تراءى مصابٌ بالبرص ذات يوم
كان يفر منه الشيخ والشاب.
كان يبتعد دائماً عن الناس،
كان يطوف مثل حيٍ في قبر.
إذا رآه أحدٌ في الطريق،
كان يخبر رفيقه،
أن يا رفيقي!
انظر حولك،
"جاء مصاب بالبرص، جاء مصاب بالبرص، احذر".
البرص أحياناً في يد المسكين
كان يخبر بصوت حزين،
أن: أيها الشخص المعافى، اهرب منا،
لا تلمس أبداً، لا تلمس المصاب بالبرص أبداً!"[٢٢]

يستغل الشاعر المرض ليصور مدى تمكن الطبقية والتباعد من المجتمع الهندي، حتى وَسمت الطبقات بالقسوة وقضت على رحمتهم وتعاطفهم مع الطبقات الأخرى حتى في أصعب الظروف وأكثرها إيلاما. ويؤكد الشاعر تمكن التباعد الاجتماعي والطبقية منذ القِدم من خلال عدة إشارات في قطعته الشعرية؛ بدأها مع بداية القصيدة بأنه سمع هذه الحكاية من أبيه؛ فهي ليست ظاهرة جديدة ظهرت في أيامه هو، ولكنها كانت موجودة من قبل، وقد سمع بها أبوه وحكاها له، كما دلل الشاعر على أزلية تلك الظاهرة وأبديتها بأنها حال الشيخ والشاب أيضاً.

من الطبيعي أن يخشى الناس على أنفسهم من هذا المرض المعدي ويتجنبون المصابين به، ولكن تجنبهم للمصابين بشكلٍ فج وتحذيرهم لبعضهم جهراً دون مراعاة لمشاعر هؤلاء المصابين المساكين كان يزيد من مأساتهم ويضفي آلاماً نفسية إلى آلامهم الجسدية.

عكس الشاعر قسوة المجتمع وطبقيته على كلا المستويين؛ الأفراد والمسئولين. أما الأفراد فقد انعكست قسوتهم في تعاملهم السيء مع المبتلين والذي كان يزيدهم هواناً فوق هوانهم، وأما الطبقية فكانت تتبدى بشدة حينما كان يمر أحد المصابين بالبرص فلم يكن أفراد المجتمع ينبهون إلا أبناء طبقتهم أو قبيلتهم فقط ليتجنبوا هذا الأبرص، دون أن يشغلوا بالهم بأبناء الطبقات الأخرى.

تبدّى عوار المسئولين من جانبين مهمين؛ أولهما عزل هؤلاء المبتلين بالبرص في أكواخ تفتقر للخدمات الطبية والعلاجية اللازمة لتخفيف آلام هؤلاء المعانين، وتركهم يعانون دون محاولة جادة لمساعدتهم أو معالجتهم، وثانياً غياب الدور الحكومي لمنع التعامل المشين مع هؤلاء المرضى المنبوذين.

إن خروج أحد المنبوذين من المخيم الذي يجمع معاناتهم كان يعتبر غدراً بالمجتمع وظلماً للطبقات الأخرى، يوجب فضح هذا الثعلب الغدار، وتنبيه الآخرين المظلومين. يقول الشاعر:

إذا خرج من المخيم خائنُ المجتمع

مبتسماً مثل الثعلب،

اذهب وأخبر الخلق المظلومين:

جاء المصاب بالبرص، جاء المصاب بالبرص، احذر!"[٢٣]

يواصل الشاعر وصف معاناة الطبقات الدنيا في المجتمع الهندي، فيُجمل حالهم بأنهم أحياءٌ في القبور؛ فهم يعيشون في قبور الأموات، ولكن حياتهم أقل من الأموات؛ فقبورهم لا تُنبت الورود؛ لأنها لا تحظى بالرعاية التي تتلقاها قبور أبناء الطبقات الأخرى، وحتى إن نمت الزهور من تلقاء نفسها، فإن نقص احتياجاتهم الأساسية يشغلهم عن شم روائحها. يواصل الشاعر حديثه في القطعة نفسها، فيقول:

سأحكي بقلبٍ حار حياة الأحياء في القبور.

الزهور لا تنمو على قبورهم، وإن نَمَت، فلن يشمها أحد.

حرفتهم كَنْس العالم.

فقط الذم والرشق بالحجارة.

الغطس تحت المناجم مجاناً،

ثقب الحديد والفولاذ بأظفارهم،

سماع آلاف الألفاظ السيئة الملفقة،

عض شفاهم بالأسنان.

أي خسران لدى هؤلاء القوم، بهذه الطريقة

أليس لهم قيمة وقدر مثل الإنسان؟

ليس هناك سبب،

ظلم الزمان

وجّههم نحو سوء الحظ.

أليست هذه الطبقة من بني الإنسان،

أليس للآخرين منها سوى الحذر؟!

هل هذه العادة عادةٌ قديمة،

هل الغلام مذنبٌ عظيم؟!

بحيث إذا خطى إلى الشارع،

يثير خاطر برهمن،

يقولون له: أيها الرجل الفقير،

أنت نجس، أنت نجس، لا تتقدم!"

للحلقة حبل في المنتصف،

علامة على عبوديته.

إذا وقع ظله على برهمن،
يجب أن تطهره دايته.
إذا أمسكت الحلقة بيد الترام،
يقولون له بحذر:
"هِي! هِي!"
لآلاف السنين ثانية هؤلاء الناس النادرون
محرومون من حق الحياة.
لماذا ترضى أيها اللورد الإنجليزي؟!
بهذه القواعد وهذه الرسوم الخبيثة

بمُلكٍ مجهول مع الرفاق
أصبحت ضيفاً لمدة شهر مثل الصديق.
أصبح شخصٌ مواجهاً لي في ذلك المكان،
شاركني الحديث بالروح والقلب.
لماذا ارتعد من الرأس للقلب ولم يجلس؟
لماذا لم تضغط اليد عليّ؟
نظر مثل غزال الصحراء
لكل ناحية،
فلماذا تجنبني؟
قال لي بصوت صامت:
"لن أنساك أبداً".
اتجهنا بعدة سبل

لدى هنود هذه القبيلة.

لن أنسى أبداً

وجوه هؤلاء الناس المظلومين التعساء،

دموع عيونهم المحزونة،

للقلب الذي نصيبه الملامة علامة.[٢٤]

استخدم الشاعر التفصيل بعد الإجمال؛ فبعدما أجمل حال المنبوذين والطبقات الدنيا بأن حياتهم أسوأ من الموت، بدأ في وصف معاناتهم من خلال صور قصيرة مكثفة؛ لخص من خلالها أبعاد تلك المعاناة، وأبرزها أنهم يكلفون بالوظائف الدنيا مثل الكنس وغيره من الأعمال الصعبة، وبدلاً من التقدير لا ينالهم إلا السب والرشق بالحجارة. كذلك فهم يكلّفون بأصعب الأعمال وأخطرها مثل الحفر في المناجم وثقب الفولاذ دون أن يُمدّوا بالأدوات التي تمكّنهم من إتمام عملهم، ودون أجرٍ مناسبٍ لهذه الأعمال أيضاً، ورغم كل هذا التعب والمعاناة لا ينالون إلا الذل والاحتقار.

إن معاناة هؤلاء المعذبين ليست لذنبٍ فعلوه؛ ولكن سوء حظهم هو الذي أنشأهم في طبقة دنيا في مجتمعٍ طبقي لا يعطي للإنسان قيمة إلا بحسب طبقته الاجتماعية؛ ولهذا فهم أذلاء منبوذون محتقرون من الطبقات الأعلى، لا يعطفون عليهم، وإنما يوسمونهم بحلقة عبودية في رقبتهم، ولا يرقّون لحالهم حتى وإن علقت هذه الحلقة بقطار مسرع وأدت لدهس صاحبها تحت عجلاته، وما من أحد يحاول أن يغير من حال هذه الطبقات المظلومة، حتى البريطانيون أنفسهم فقد رضوا بهذه الحال عند استعمار الهند، بل واستغلوا أوضاع هذه الطبقات لخدمة مصالح الاستعمارية أيضاً.

تحسن حال المنبوذين كثيراً فيما بعد عما رآه الشاعر أثناء زيارته للهند؛ فقد ألغى الدستور الهندي طبقة المنبوذين رسمياً منذ ٢٦ يناير ١٩٥٠م[٢٥]، وحظرت الحكومة الهندية استخدام مصطلح المنبوذين بعد اغتيال زعيمها المهاتما غاندي[٢٦] الذي لعب دوراً كبيراً في إلغاء الفوارق الاجتماعية وتذويب الفروق بين الطبقات، واعتبرت التمييز ضد المنبوذين أمرا مخالفا للدستور،

ويعاقب عليه القانون، وكرَست الحكومة التمييز الإيجابي في الدستور، وشمل ذلك تخصيص وظائف حكومية وأماكن في التعليم العالي لأبناء طبقة المنبوذين، وبمرور الوقت أدت المبادرات الحكومية للحد من التمييز بين الطبقات، إلى تمكين أبناء الطبقات الدنيا من الوصول إلى مناصب سياسية عليا.(٢٧)

٢- الفقر:

يقول الكاتب الإنجليزي "روبرت نايت": لما قدمنا إلى كجرات أول مرة سنة ١٨٠٧م كان فيها الغنى والثروة، والآن نرى الكثير من أهلها لا يجدون ما يسترون به أجسامهم، والإقطاعيون يؤدون إلينا ثلاثة أضعاف ما كانوا يؤدونه لمن قبلنا، ولذا اضطروا أن يستدينوا بالربا من طائفة "البنيا" (وهي طائفة مالية تجارية كاليهود في جمع المال) فإذا عجزوا عن سداد ديونهم استولى الدائنون على أملاكهم وقراهم، ولو استمر الحال على ذلك فلا تتصور كيف يكون المستقبل".(٢٨)

اتبعت بريطانيا سياسة إفقار الشعب الهندي بمختلف فئاته العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة؛ فأما الزراعة فقد عهد الاستعمار بالإقطاعيات إلى مؤيديه، الذين لم يكن لهم علاقة بالأراضي والفلاحين؛ لأنهم لم يكونوا من أهل تلك المناطق، وكانوا يجهلون أمور الزراعة، فضيَقوا على الفلاحين أكثر من ذي قبل.

أما الصناعة فلم يستطع العمال المشتغلون بالصناعة مجاراة القوة البريطانية الصناعية، ولم يستطيعوا الصمود أمام الصعوبات التي وضعتها أمامهم بريطانيا؛ فقد استخدمت شركة الهند الشرقية نفوذها السياسي لتملي شروطها على النساجين في البنغال؛ فأُجبروا على بيع منتجاتهم بأسعار بخسة، والأكثر من هذا، فقد أُجبر العديد منهم على العمل لصالح الشركة مقابل أجر زهيد، ومُنعوا من العمل لدى التجار الهنود.

أما التجارة فقد أزاحت شركة الهند الشرقية منافسيها من التجار الهنود والأجانب، ومنعتهم من إعطاء أجور أو أسعار أعلى للحرفيين البنغال، كما احتكر موظفو شركة الهند بيع القطن الخام، وأجبروا النساجين البنغال على شرائه بأسعار باهظة؛ وهكذا خسر النساجون في كلتا

الحالتين، كبائعين وكمشترين. وفي الوقت نفسه، كان يتم فرض رسوم باهظة على المنسوجات الهندية لدخول إنجلترا؛ فقد كانت الحكومة الإنجليزية مصممة على حماية صناعتها التي كانت لازالت عاجزة حتى ذلك الوقت عن منافسة البضائع الهندية الأرخص والأكثر جودة. وهكذا كان النظام الإداري البريطاني في الهند يخدم أهداف بريطانيا لاستغلال الهند اقتصاديا حتى النهاية لصالح بريطانيا، كما كان على الهند أن تتحمل كافة تكاليف احتلالها، بالإضافة للحكم الأجنبي.[٢٩] وهو ما كان يعني المزيد من الفقر والتشرد للشعب.

وصل الفقر لدى بعض الفئات في المجتمع الهندي في فترة الاستعمار البريطاني إلى حد الموت جوعاً، فقد تحولت حياتهم في ظل الاستعمار إلى محنة، أدت إلى فقرهم إلى حد الموت، وتفشّت بينهم الأمراض، فابيضت رؤوسهم، وانحنت ظهورهم، وكثر فيهم العمى والعَرَج والعاهات المختلفة. يقول الشاعر في "ميهمانِ مغربي" (الضيف الغربي):

هلك الكثيرون طلباً للخبز.
تعبوا وسقطوا جماعات على الأرض.
رأيتُ هذا وتمزق كبدي،
سال دمعي على خدي.
كان هذا كله في ناحية كلكتا،
كانت المدينة مليئة بالهراء والعبث.
رغم أن رؤوس الناس ابيضّت من الحزن،
لكن قلوبهم مملؤة بالأمل.
رغم أن جسدها مثل الرماد،
لكن يتوارى الجمر في قلبها.
رغم أن هذه الأرض ذهبت للغارة،
انظر ثانيةً إلى كنزها الرائج.
محنة الفلاح والعامل

مجانية أكثر من كل أشياء العالم.

لماذا قامات الشباب محنية؟

لماذا رؤوسهم ليست مرفوعة عالياً؟

لماذا تمتلئ المدينة بالعُمي والعُرج؟

لماذا رؤوس الشعب المسكين مضطربة؟

أهذه أسطورة البنغال،

قصة مائة عام من المحنة!..[٣٠]

نجح الاستعمار البريطاني في سلب خيرات الهند وإفقار شعب، وانعكس ذلك على صحة الناس وسلامتهم، فابيضت رؤوسهم وانحنت ظهورهم وزادت بينهم الأمراض والعاهات، ولكن رغم ذلك بقي لدى الشعب كنزٌ حقيق آخر لم ينل منه الاستعمار، وهو الكنز المعنوي، الذي رآه الشاعر في قلوب الناس العامرة بالأمل.

٣- التشرد:

إن الفقر عندما يجتمع مع الإهمال يؤدي بالتبعية إلى التشرد؛ فقد ضاعف تمييز الطبقات العليا في مقابل إهمال الفقراء وعدم رعايتهم من مغبة فقرهم، ودفع بهم إلى التشرد. ويناقش الشاعر تورسون زاده مشكلة التشرد لدى الشعب الهندي في قطعة "در آرزوي آشيان" (في تمني العش)؛ فقد رأى الشاعر بعينيه معاناة الهنود الفقراء المساكين؛ وشهد على افتقارهم لأبسط مقومات الحياة؛ مسكن يؤويهم أو أي مكان يسترهم. يقول:

سافرت إلى الهند ورأيت كثيراً من هؤلاء الناس المساكين،

سمعت بأذني في كل مكان، أغنية أملهم وأمنيتهم:

لماذا في بلادنا كل الطيور لديها عشٌ ونحن لا؟

العقبان في أعالي الجبال لديهم عالمٌ ونحن لا؟

عندما يأتي الليل، لا يعرفون أين يضعون رؤوسهم وينامون،
كيف يضعون اللَبِن والحجر تحت رؤوسهم في تلك الليالي المظلمة.

شجرة المانجو المليئة بالأغصان والأوراق، هي مظلتهم طوال الأيام والليالي،
نفتح ريشها فوق رؤوسنا مثل العُقاب، لتكون حارساً.

الجميع فلاحون وأبناء الأرض،
ولكن ليس لهم مكانٌ في الأرض.
طوال عمرهم ليس لديهم مأوى للعيش في الدنيا.

إذا قدِموا إلى المدينة، لا يرون باباً مفتوحاً أمامهم في أي مدينة:
لا يرون عوناً ورفيقاً سوى طالع الذل والرأس الصلبة.

الأرض صلبة وعالية والسماء أيضاً،
كل ليلة يحصون النجوم:
وكأن ليس لديهم علاجٌ آخر سوى الذل والهوان.

في هذه الأثناء ترفعه يدٌ قوية من إبطه عن الأرض.
تقول: أنت إنسان، اعرف قدر نفسك،
لا تجلس مضطرباً ثانيةً على الأرض.
مياهنا وترابنا ليس لهم ذنب في يوم شعب الهند الأسود هذا.
لو تريد أن تجد حظك، فامضِ في الطريق عادلاً.

اصنع العالم حسب رغبتك،

الفضاء والأرض والزمان.

لن تتمنى في تلك اللحظة سعادة الطيور.[٣١]

يناقش الشاعر في القطعة السابقة حقوق فقراء الهند بطريقة بديعة؛ فحال هؤلاء الفقراء كان يسير من سيء إلى أسوأ، حتى نسوا أنهم بشرٌ ومواطنون لهم نفس حقوق البشر والمواطنين الآخرين؛ فحلمهم بالمسكن لم يراودهم لكونهم بشراً لهم حق السُكنى مثل غيرهم، ولكنه راودهم لمّا رأوا الطيور المحلقة فوقهم تأوي إلى أعشاشها في آخر النهار، فرغبوا في عشٍ يأويهم مثل هذه الطيور، فهم قد رضوا وقنعوا منذ وقتٍ طويل بمنزلتهم غير الإنسانية، ولكن رؤية الطيور والحيوانات من حولهم دفعتهم إلى تمني النعم التي حبا الله بها هذه المخلوقات.

عانى الفقراء في الهند من التشرد دون مكان يؤويهم، فسكنوا العراء محدقين إلى نجوم السماء، وافترشوا الحدائق تحت الأشجار، يتوسّدون اللبِن والحجارة، واتخذوا أوراق الأشجار ستراً لهم ودفئاً لأجسادهم.

إن رضا المشردين الهنود بذلهم وتشردهم هو ما أمعن في المزيد من الذل والتشرد لهم؛ حتى حرمهم من أبسط حقوق الإنسان؛ ونسوا أنهم بشرٌ لهم نفس تلك الحقوق التي ينعم بها ساداتهم، ولذلك يمنحهم الشاعر الحل في نهاية قطعته؛ فيخبرهم بأن إنهاء معاناتهم وتشردهم رهنٌ بتوفقهم عن الرضا بالفتات وتمني حياة الطيور، والبدء في المطالبة بحقوقهم كبشرٍ.

ارتضى المشردون لأنفسهم المعاناة ولم يفكروا في تغييرها؛ تعايشوا مع تشردهم، ولم يطالبوا بسكنٍ لهم، ولكن رضوا عوضاً عن ذلك بالحدائق سكناً، افترشوا أرضها واستتروا بأشجارها، ولم يفكروا في حقوقهم كبشر، أو يفكر أحد آخر في حقوقهم. يقول في قطعة بعنوان "قدحِ من" (قدحي):

كانت هناك حديقة في قلب كلكتا، نالت الجاه والشرف من أهلها.

عدة أشخاص من الشعب البالغ مائتي مليون، جعلوا الحديقة مكاناً لهم.

يدفعون دين المواطنة،

يوفون للوطن والناس.

رغم أنهم بقوا بعيداً عن الوطن،

لكنهم يتنفسون مع الوطن.[٣٢]

٤- العدالة الاجتماعية:

إن العدالة هي الضمانة للقضاء على الفساد وهي الضامن كذلك للمساواة بين المواطنين وحصول كلٍ منهم على حقوقه العادلة. ولذلك كانت العدالة الاجتماعية من بين القضايا المهمة التي تحدث عنها الشاعر في مجموعته. يقول في "قدحِ من" (قدحي):

رؤية الهند المنهوبة-

حال الهنود الذين لا يقهرون،

رؤية جماعة بلا ألم أو حزن-

أناسٌ غرباء عن اللطف والكرم،

رؤية شحاذون مساكين في الطريق-

موت مائة رجل وامرأة مشردين،

رؤية غريب شيطانٌ في الفن،

من كثرة أن شيطنته متقنة،

رؤية شيطان قتل الإخوة،-

التمتع بدماء الناس،

رؤية ناحية كلها خراب،

والناحية الأخرى منازل متعددة الطبقات،

ضاقت الجبال في قلوبنا-

أصبحت جبال كبيرة من الألم والحزن.[٣٣]

إن فقر الكثير من شعب الهند وتشردهم كان مَرَده إلى انتشار الفساد وتردي العدالة الاجتماعية، وليس لقلة موارد الدولة؛ حيث كان ينعم البعض بالعطايا والنعم والمنازل العامرة، بينما يموت الآخرون من الفقر والتشرد، وكان مما زاد الأمر سوءً التقاتل بين أبناء الوطن، إلى جانب الاستعمار البريطاني الذي استنزف ثروات البلاد وقلّبهم ضد بعضهم، وكانت أنماط حياة شعب الهند تشهد على التفرقة بينهم؛ حيث كانت الأطلال والفقر في ناحية، وفي الناحية الأخرى منازل فارهة متعددة الطبقات.

يلمح الشاعر في قطعة "قصة هندوستان" (قصة الهند) إلى دور الفساد وانعدام العدالة الاجتماعية في فقر الشعب، ويعجب من فقر الشعب رغم خصوبة أرضه ووفرة الخُضَر والكنوز الثمينة. ويكرر الشاعر الشطرات الأربع مرتين في موضعين مختلفين من قطعته، ويغير وصف الأرض في مرة بالخصبة وفي أخرى بالجميلة. يقول:

رأيت خلف جبال الهيمالايا
أرضاً خضراء جميلة كلها.
رغم كنوزها الثمينة،
لكن شعبها شحاذون.[٣٤]

هكذا فقد ضاعف انعدام العدالة الاجتماعية من معاناة شعب الهند؛ حيث تم استغلال الفقراء والضعفاء وإهمالهم لحساب فئاتٍ وطبقات أخرى، وهو ما أدى لمنح المزيد من الامتيازات للطبقات القوية، فيما حرمت الطبقات الدنيا من أبسط حقوقها.

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية

لم يكن الاقتصاد الهندي في فترة ما قبل الاستعمار البريطاني في القرن الثامن عشر على أحسن حال؛ فقد أسهمت عوامل عديدة في تراجع التجارة الداخلية؛ من بينها الحرب المستمرة، تعطيل القانون والنظام في العديد من مناطق الهند خلال القرن الثامن عشر، نهب العديد من المراكز التجارية على أيدي المتصارعين على السلطة والغزاة الأجانب، نهب التجار وقوافلهم على أيدي العصابات واللصوص، تنامي المقاطعات المستقلة، ووجود عدد لا يحصى من الزعماء المحليين؛ ما أدى إلى ازياد عدد المراكز التجارية بسرعة فائقة، وحاول كل حاكم صغير أو كبير زيادة دخله من خلال فرض رسوم جمركية باهظة على البضائع التي تدخل أراضيه أو تمر بها، كل هذه العوامل كانت لها عواقب وخيمة على التجارة على المدى البعيد. كما أن الفقر الذي لحق بالنبلاء– الذين كانوا أكبر مستهلك للبضائع الفاخرة التي تعتمد عليها التجارة– كان له تأثير سيء على التجارة الداخلية. بالإضافة إلى التغيرات السياسية والحربية وتأثيرها البالغ على التجارة الداخلية.[٣٥]

كان البريطانيون يعتبرون الهند "جوهرة التاج" الأكثر إشراقاً، والأكثر قيمة بين جميع المستعمرات، وقد وضع الاستعمار البريطاني نصب عينيه السيطرة الاقتصادية على بلاد الهند ونهب خيراتها، وسار هذا المخطط في طريقين رئيسيين، أولهما منح العديد من المزايا التجارية والاقتصادية للإنجليز، في مقابل فرض مزيد من القيود على الاقتصاد الهندي بكافة أشكاله وحظر المنافسة الهندية للسلع البريطانية.[٣٦]

فرضت بريطانيا الضرائب على الصناعات المحلية حتى تسهّل لبضائعها الإنجليزية غزو أسواق الهند ومضاربة الصناعة المحلية الهندية والقضاء عليها، كما قامت الشركة الإنجليزية بإنشاء السكك الحديدية لتسهيل نقل البضائع، ودخل رأس المال البريطاني لتمويل المزارع الكبرى، وكان الأوروبيون يمتلكون مناطق واسعة من الأرض لزراعتها، وكان المزارعون الهنود يعملون في الأرض كأنهم عبيد أو رقيق، ونشأ نظام شبه إقطاعي. وكان لمالكي المزارع سلطات كبيرة داخل مزارعهم بحيث لا يُحاسبوا عما يرتكبون من جرائم قتل وكأنهم سلطة وحدهم.

امتدت مصالح الاحتكار البريطاني أيضاً إلى بناء السفن وإنشاء البنوك والتحكم في التجارة وإنشاء الصناعات، فكانت صادرات الهند هي المواد الخام، وكانت الهند رأس القائمة في تزويد الصناعات البريطانية بالمواد الخام كالقطن والشاي والمطاط والبن وغيرها من الثروات الحيوانية والمعدنية، ونتج عن ذلك أن ازدادت الهند فقراً نتيجة استنزاف ثرواتها.[٣٧]

مضى تدمير الاقتصاد الهندي لخدمة نظيره البريطاني بسرعة ودقة، فقد انهارت الصناعات اليدوية الحضرية بشكلٍ مفاجئ وسريع نتيجة لمنافسة السلع المصنّعة الرخيصة من بريطانيا، حيث فرض البريطانيون على الهند سياسة التجارة الحرة باتجاه واحد بعد عام ١٨١٣م، وتبع ذلك على الفور غزو الصناعات البريطانية، ولا سيما المنسوجات القطنية، ولم تستطع المنتجات الهندية المصنّعة بطرق بدائية منافسة البضائع المنتجة على نطاق واسع بواسطة آلات قوية تعمل بالبخار.

كان بناء السكك الحديدية عاملاً مهماً آخر في تدهور الصناعة الهندية، وخاصة الحرف الريفية؛ فقد مكّنت السكك الحديدية الصناعات البريطانية من الوصول للبضائع التقليدية، واجتثاثها من القرى النائية في البلاد.

كانت صناعة غزل ونسيج الأقطان الأكثر تضررا، ولم يكن حظ المنسوجات الحريرية والصوفية أفضل، ولحق المصير نفسه بصناعات الحديد، الفخار، الزجاج، الورق، المعادن، البنادق، الشحن، تقطير الزيت، الدباغة والصباغة.

أدت رسوم الاستيراد الباهظة والقيود الأخرى التي فُرضت على تصدير السلع الهندية إلى بريطانيا وأوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلى جانب تطور الصناعات الحديثة في بريطانيا، إلى إغلاق الأسواق الأوروبية الافتراضية في وجه المصنوعات الهندية بعد عام ١٨٢٠م. كما أن الاختفاء التدريجي للحكام الهنود وبلاطهم، الذين كانوا العملاء الرئيسيين للمنتجات اليدوية، وجّه ضربة قاسمة لتلك الصناعات.

زاد من تفاقم المأساة أن اضمحلال الصناعات التقليدية لم يصاحبه نمو الصناعات الآلية الحديثة، كما كان الحال في بريطانيا وأوروبا، وبالتالي فشل الحرفيون والصناع في الحصول على

وظائف، وكان الحل الوحيد أمامهم الزحف نحو الزراعة. بالإضافة لذلك، أدى الحكم البريطاني إلى خلل في توازن الحياة الاقتصادية في القرى، وأدى التدمير التدريجي للحرف الريفية إلى تفكك الوحدة بين الزراعة والصناعة المحلية في الريف، وساهم بالتالي في تدمير الاقتصاد الريفي الذي كان مكتفيا ذاتيا. فمن ناحية، كان على ملايين الفلاحين، الذين كانوا يستكملون دخولهم بالعمل بدوام جزئي في الغزل والنسج، الاعتماد بشكل كبير على الزراعة. ومن الناحية الأخرى، فقد الملايين من الحرفيين الريفيين سبل عيشهم التقليدية، وأصبحوا عمالا زراعيين، أو مستأجرين صغار يمتلكون مساحة صغيرة؛ مما زاد من الضغط العام على الأرض. وهكذا أصبحت الهند مستعمرة زراعية للتصنيع البريطاني الذي كان بحاجة إليها كمصدر للمواد الخام للصناعات.[٣٨]

حبت الطبيعة الهند بآيات من السحر والجمال؛ مياه كالزئبق، جبلٌ عالٍ ملئ بخيرات الطبيعة التي جعلت الطيور تحلق نحوه كالمظلة، جواهر طبيعية، غابات تضم أندر الأشجار المعمرة، حيوانات نادرة من أفيال، ببر، نمور، قرود، طواويس وديدان تضئ مثل الجواهر، زهور متنوعة يشمل الإنسان من رائحتها، حبات الجوز والأناناس، مياهٌ زرقاء وحشرات ملونة وغيرها من الخيرات. ويشير الشاعر إلى تلك الثروات في قطعة "ميهمانِ مغربى" (الضيف الغربي):

كل ما تراه أنتَ في هندوكوش
على قمة الجبل الأبدي المغطى بالفضة.
سمعتَ من قبل، أن شجرة من البدن
تخرج أجنحتها في فضاء الروضة.
النخل يحني رأسه في ذلك المكان،
ليصنع قبعة من ريش الطاووس.
أصبح في ذلك المكان وطن الحيوانات–
أثمن مصيد في العالم،
يأتي صوت الفيل والببر والنمر،

الصوت اللطيف للفقاعات الملونة،
أرض منحدرة مليئة بالحُفر،
يهلك الرجل من رطوبتها.
القرد محترق القدم، محترق الذيل،
الديدان مضيئة بالليل مثل الجواهر–
كل هذا في غابة الهند
تخيف الشيوخ والشباب.

لو ذهبتَ لمشاهدة الغابة
سوف تثمل من الرائحة العطرة.
لم ترَ مطلقاً مثل هذا الجوز،
ما من أناناس جيد هكذا مطلقاً.
لو قطفتَ ورودها بعينك،
سوف تتذكر وجه الفتاة الجميلة.
لم ترَ مطلقاً مياه نهر كهذا،
زرقاء داكنة مثل قنينة صبغة.
حشرات صفراء ووردية كثيرة
تراها ولن تنساها أصلاً.
هذا كله على ضفاف الغانج، الغانج[٣٩]**،**
قصة الغانج الثائر، الغانج...[٤٠]

١- ذهب الثروات:

لم ينظر البريطانيون للهند باعتبارها بلد ذات حضارة عظيمة، غنية بمظاهر الطبيعة الساحرة ومناظرها الخلابة وحيواناتها النادرة التي يجب المحافظة عليها، لكن ما كان يشغل بالهم آنذاك هو

نهب ما يستطيعون من هذا الكنز، نهبوا خيرات الأرض وما تنتجه من حرير وقطن وقمح، قتلوا الحيوانات النادرة وسلخوا جلودها، سلبوا الكنوز وتكبروا وتجبروا بها على الشعب وأذاقوه الذل والهوان:

قوة جاذبية هذه الديار
جعلت قلب الرجل الغربي صيداً.
ليس هناك حدٌ لأمانيه،
ترى العبوس فوقه.
اضطرابه يفوق الحد،
يتجاوز العقل البشري.
ليس هناك أي أثرٍ في قلبه
جميلة مملكة الدنيا هذه،
قمة هندوكوش الجميلة.
كل حزام وكل وادي هندوكوش.
السحابة العالية فوق قمة هذا الجبل العتيق
لذة طيران العقاب الشجاع...
تذهب من ممر الزقاق
لا تسأل عن زينة تلك الحديقة.
يمر لأجل الأنقاض
المدرسة والهيكل والمنازل،
يمر ولا ينظر
دون اضطراب القلب وشوق الرأس.
ليس لدى هذا المار أثر
لعشق الوردة وأنين البلبل.

جاء وجلس فوق رقبة الهند،
أخذ بيده كل ما كان يريده.
أخذ جلود الثعالب والنمور،
أخذ المحصول الفقير من المزارع،
أخذ القطن والحرير والقمح،
أخذ الخبز من أفواه كل الناس:
شرب عصارة هذه الأرض الغنية،
امتص دماء الناس الشحاذون.[٤١]

رغم طول فترة مكوث البريطانيين في الهند، فإنهم لم يعتبروا هذه البلد مستقراً لهم، ولم يحاولوا حتى التقارب مع أهلها، ولكنهم ظلوا طوال الوقت يعتبرون أنفسهم غرباء عن البلد وأهلها، يتعالون على شعب الهند بما نهبوا من خيرات بلدهم، لذا لم يسعَ البريطانيون في أي وقت لتعمير الهند والحفاظ على خيراتها، ولكنهم جعلوا كل همهم نهب خيرات البلد، وهو ما أمعن في خراب البلاد.

كان اقتصاد الهند يقوم على الزراعة حتى ما قبل الاستعمار البريطاني، وكان الكثير من شعب الهند يعملون إما في الزراعة أو الصناعات اليدوية أو التجارة التقليدية– حيث لم تكن الصناعة الحديثة قد وجدت بعد في الهند– ولكن بعد الاستعمار أصبح الهنود يعملون لصالح دولة بريطانيا، التي احتكرت كافة موارد الدولة، وكان جل إنتاج الهنود يذهب إلى بريطانيا عبر السفن التي تحمل خيرات البلاد إلى خارجها، لتعود أموالاً تدخل في جيوب الاستعمار البريطاني. يقول في رودِ گنگ (نهر الغانج):

رغم أن أهلك فلاحون،
فإنهم يحصدون في أرضك.
جعل الرجال الأشرار

عملة حديدية حملاً فوق كتفك.
ليل نهار تعبر فوق رأسك
القوافل نحو الغرب البعيد.
كل عربة تذهب مفعمة،
يجدر أن تكون حزينة لأجلك،
أم أنك رأيت لصاً يقتلع قلبك مجاناً ويحمله؟
يحمل حسن ربيعك،
آخر بذور مزرعتك،
يحمل لبن أمهاتك
رزق أطفالك المساكين.[٤٢]

إن نكبة الاستعمار البريطاني ليست فقط في نهب الموارد، فهو لا يكتفي بالاستيلاء على الثمار الذي يزرعه الفلاحون الهنود ويخضَرونه في أرضهم، ولكنه يدمر الإنتاج الزراعي الهندي أيضاً، وذلك عبر سرقة آخر البذور الموجودة في الحديقة؛ كي يضمن المستعمر ألا يتمكنوا من الزراعة مرة أخرى، ليستطيع هو تسويق منتجاته مستغلاً جوع وعِوَز الشعب لصالحه.

تجاوز جشع الاستعمار البريطاني في ثروات الهند الحد، ولم يكن لهم رادع أو وازع إنساني، فقد طمعوا حتى في لبن الأطفال ورغبوا في سلبه من صدور الأمهات.

لم يكتفِ جشع الاستعمار بخيرات الزراعة فقط، ولكنهم تحايلوا أيضاً لسرقة الذهب والجواهر والمعادن النفيسة وكل ما تخرجه الأرض. يقول الشاعر في قطعة "ميهمانِ مغربى" (الضيف الغربي):

يمد هذا الغربي يد الطمع تجاه الهند مثل الثعلب.
"ضع الدُر الثمين في يدي"
أعطني الذهب وأعطني الذهب وأعطني الذهب".[٤٣]

٢- الركود الاقتصادي:

كان من الطبيعي في ظل محاصرة البريطانيين للاقتصاد الهندي إلى جانب نهب الثروات بكل طريقة ممكنة، أن تعاني الهند من ركودٍ اقتصادي، يجعل الحياة فيها أمراً عسيراً. ويتوجّه الشاعر في

قطعة "سياحِ هند" (سائح الهند) بالحديث إلى صبيٍ أفغاني جاء سائحاً إلى بلاد الهند يحدوه الأمل أن يجد فيها الخير الكثير وينعم بطبيعتها وثرائها. ويخبر الشاعر من خلال حديثه إلى الصبي أن الهند لم تعد تلك الديار العامرة المزدهرة التي حفل التاريخ بحكايات عنها، والتي كان يسمع عنها الحكايات من أبيه، لكنها أصبحت مرتعاً للمستعمرين البريطانيين، الذين استباحوا أرضها، وسخّروها لخدمة رغباتهم الاستعمارية، فرابوا أهلها، وظلموا وقتلوا، ولم تنل الهند منهم سوى الظلم والفقر والقتل، ثم يقدم الشاعر للصبي الأفغاني الحالم لمحة عن مستقبله المنتظر في بلاد الهند في ظل محتلها الغاشم، ويطلب الشاعر ضمنياً من خلال حديثه للصبي الأفغاني أن يترك هذه البلد لأنها لم تعد دار سعادة حتى لأهلها. يقول:

اللوردات الإنجليز منذ قديم الأزل
يأتون ويذهبون مثل "العملاء"

أعرف جيداً أن صوب هذه الديار
لم تأتِ مثل القوم المرابين.
لم تأتِ، لتسيطر على العالم،
تظلم من جديد وتسلب الأرواح
لم تأتِ لتشرب الدم الهندي،
تجلب الحظ السيء وتأخذ مائة منفعة.
جئت تبحث عن خبزك،
تحيي روحك الصغيرة.
جوعك الغاضب لا فائدة منه
خلف جبل هندوكوش العالي.
أيها السائح الشاب الكابولي،

أنت طفلٌ صغير في حكم الوردة.
يجب على الأطفال في هذه السن
أن ينالوا نصيباً من الفضل والكمال:
نصيباً من دولة عمر الشباب،
من دلال الأمهات الضاحك:
نصيباً من العهد المليء بالأمل،
من تفتح الإقبال الأبيض.
في دياري العظيمة ذي الشأن،
أنتم، يا لسعادتكم يا أبنائي
سوف يصير مستقبلهم عياناً
أمام عيني مثل الدنيا الكبيرة.
حظك في هذه الديار التي بلا مأوى.
كان أسوداً وازداد سواده مرة أخرى.
سوف تألف الحزن في الشارع،
سوف تنحني أمام أقدام الأخساء.
سوف تنظف بلونك وحملك
متاحف سارقي الحظ من التراب.
يمنحون العملة[٤٤] مثل الإله.
وكأنهم ينظرون على الشحاذ.
أنت تظهر العالة بهذه العملة
وكأنها شَبِعة دائماً.
سواء أمك أو أبوك العاطلان عن العمل
عيونهما معلقة على طريق سوقك.

مثلك أيها السائح الصغير غير المحظوظ،
لم أر يوماً سعيداً في شبابي.
كنتُ أسمع من أبي في الليالي المظلمة
مثلك قصصاً لا حصر لها.
كان يقول لي: "في جهة الجنوب
دولة جميلة جداً.
صورة تلك البلد مختلفة،
مياهها فضة، وترابها ذهب.
تنخفض الشمس كل عام،
قوام رمح على الأرض والماء".
أتيتُ الآن من البلد السعيد،
جئتُ كممثل للشعب العظيم.
أتيتُ ورأيتك بعيني
في الشارع على حافة البحر الأزرق.
تجري، تجري بعيونك الرطبة،
تنحني أمام أقدام الأخساء.
سوف تنظف بلونك وحملك
متاحف سارقي الحظ من التراب.[٤٥]

عبَر الشاعر عن مشكلات الهند الاقتصادية في ظل الاستعمار البريطاني بعين الشاعر، وليس السياسي أو الاقتصادي الحصيف، ولذا جاء حديثه عن مشكلات الاقتصاد مختلطاً ما بين نهب الزراعة والمعادن والاحتكار واستغلال الموارد، بشكلٍ يصعب معه تقسيم المشكلات الاقتصادية في مجموعته إلى قضايا محددة، ولكن حديثه تركز أكثر على تدمير الاقتصاد ونهب خيرات الهند بشكلٍ عام.

المبحث الثالث : الأوضاع السياسية

تحظى دراسة أوضاع المجتمع الهندي السياسية في فترة الاستعمار البريطاني على وجه الخصوص بأهمية بالغة؛ لما لها من ارتباطٍ وثيق بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية، وما وصل إليه حال الهند. فرغم أن التدهور السياسي للهند قد بدأ منذ أواخر حكم المغول، وأدى إلى الفساد وضعف الإدارة، ولكن التدهور السياسي للهند بلغ أشده في فترة الاستعمار البريطاني؛ حيث أدت السياسات الاستعمارية إلى انتشار الفساد والضعف السياسي وما ترتب عليه من آثار. ومن أهم المشكلات السياسية التي عبر عنها الشاعر:

١- ظلم المستعمر:

بدأ التواجد البريطاني في الهند من خلال شركة الهند الشرقية، وقد بدأت الشركة ضعيفة في أول الأمر، واعتمد الإنجليز على الحيلة والتودد إلى حكام الهند وتقديم الهدايا المختلفة لهم، وتقبّلهم حكام الهند نتيجة استيائهم من البرتغال وسلوكها الخشن معهم، وربما فكر بعضهم في استغلالهم لضرب البرتغاليين وكسر شوكتهم، وتقرّب الإنجليز إلى الملك المغولي آنذاك، وكان المظهر التجاري لهؤلاء الإنجليز إلى جانب قوة ملوك الهند سبباً في ألا يفكر الملوك في العواقب، فلم يكونوا في نظر الحكام إلا تجاراً مرتزقين، لهذا لم يعطهم الحكام أي اهتمام من الناحية السياسية، وأحياناً كانوا يعطفون عليهم ويمنحونهم بعض التسهيلات، كرفع الضرائب عنهم، ومنحهم إذنا بإنشاء مراكز تجارية لهم، وكان يقوم بحراسة هذه المراكز حراس وطنيون، ثم تدرجوا فجعلوا الحراس أيضاً من أبناء جنسهم، وأخذوا يسلحونهم بحجة الحراسة، ومن هنا نبت الجيش الإنجليزي– المكون من الإنجليز ومن أبناء البلاد الذين انخرطوا في سلكهم– الذي أخضع الهند لسلطان الإنجليز فيما بعد.[٤٦]

خدع الإنجليز الهنود حتى استتب لهم الأمر، فاعتبروا أنفسهم فوق مستوى الشعب الهندي المحكوم، وما على الهنود في نظرهم إلا أن يتكيّفوا معهم ويخضعوا لهم ولهواهم؛ لأن هؤلاء البريطانيين من وجهة نظرهم جاءوا لإنقاذ البشرية وأخذها لطريف الحضارة والمدنية الغربية، وبهذا لم يستطع هؤلاء البريطانيون التعايش سلمياً والانسجام اجتماعياً رغم المدة الطويلة التي

مكثوها في الهند والتي جاوزت قرنين من الزمن، فقد كان كل من الهندي والبريطاني ينفر من الآخر.(٤٧)

يصور الشاعر علاقة الإنجليز بشعب الهند في قطعة بعنوان "ميهمانِ مغربى" (الضيف الغربي)، ويرسم في مقدمة القطعة صورة للمستعمر البريطاني الذي جاء إلى الهند ضيفاً من أجل التجارة، ثم ما لبث أن تجبّر على مضيفيه، ويقدم الشاعر صورة للضيف البريطاني مليئة بالتشوه والاضطراب النفسي التي ما إن يتخيلها القارئ أمام عينيه حتى يدرك لما لم يتآلف الإنجليز والهنود رغم طول مدة مكوثهم معاً. يقول:

أهذه أسطورة البنغال،
قصة مائة عام من المحنة!..
يمر الغربي المزهو بنفسه
رافعاً رأسه وأنفه لأعلى.
ملوحاً بالعصا الخشب في يده
يقطع الطريق في المساء والسَحَر كالثمل.
ليس في رأسه سوى الغرور،
يسعى قلبه للهو والسرور.
لماذا هذا الغربي أسود القلب
يراقب الشرق بحرص؟
هل سلبت هذه الأرض قلبه
الرائحة العطِرة لهذه الروضة المدللة؟
هل الهوس برؤية القرود،
أم الاستيلاء على الكنوز؟
يقولون، إن سفر الرجل من الغرب المظلم ليس عيباً أو عاراً.

جعل للقسوة اسماً،

زرع بذور الظلم والجهل

ليس في قلبه أي أثرٍ

لصياح وصراخ الأب أو الابن،

زينة الحديقة والروضة الساحرة،

وجه الوردة وصوت العندليب العذب،

القصر وأبنيته القديمة...

شهرته القديمة العظيمة...

برأس مليئة بالفتنة والكر والفر

يمر من بين الخلائق.

يمد هذا الغربي يد الطمع تجاه الهند مثل الثعلب.

"ضع الدُر الثمين في يدي"

أعطني الذهب وأعطني الذهب وأعطني الذهب".

يمر بعيداً عن الزحام

دون اهتمام أو احترام.

أحياناً يتراءى مثل الجندي،

وأحياناً مثل شحاذي الطرق،

أحيانا مثل قط متحفز لفأر،

أحياناً هاربٌ مثل فأر صامت.

كل ما كان يريده في هذه الأرض،

أن يخضع الجميع تحت الخاتم.[٤٨]

كما يتضح من الأبيات السابقة؛ فقد اتسم الإنجليز في تعاملهم مع أهل الهند بالغرور والتكبر الشديد، الذي كان يتبدّى حتى في سيرهم رافعي الأنف والرأس إلى أعلى وكأنهم من

جنسٍ أرقى من الهنود. واتسموا كذلك بالظلم وقسوة القلب التي جعلتهم لا يحفلون بصراخ المظلومين صغاراً وكباراً. لا يقيمون وزناً لأي علاقات أو روابط اجتماعية، ولا همّ لهم إلا إخضاع الجميع لسلطانهم جبراً وقهراً. وفي ظل تلك الطبائع والمعاملة السيئة من البريطانيين تجاه الهنود، كان من الطبيعي أن تزداد الأمور بينهم سوءً، ولا يحدث أي تقارب، ومن ثم المزيد من القسوة والظلم في الفعل أو رد الفعل الإنجليزي.

كان من بين مبادئ الحكم الإنجليزي في الهند ألا يتوالد الغالبون والمغلوبون أبداً، مادامت التجارب المكررة منذ القديم قد دلت على أن توالد الشعوب العليا والشعوب الدنيا في المستعمرات يؤدي إلى انحطاط الشعب المهيمن أخلاقًا وعقلًا، ثم إلى خروج مستعمرته من يده في أقرب وقت كما حدث للبرتغاليين في الهند والإسبان في أمريكا. وليس أدل على ذلك المبدأ من أن الإنجليز حكموا قرابة ٢٦٠ مليون نسمة في الهند وممالكها الأهلية، ولا تكاد ترى نصف مليوناً من هؤلاء جاء من توالد الهندوس والأوروبيين،[٤٩] وهذا إن دل فإنما يدل على أن الإنجليز جاءوا حاملين لثروات البلاد ولم يأتوا معمرين لها.

يناقش الشاعر قضية عدم اندماج البريطانيين في المجتمع الهندي؛ ويعلّلها بأن المستعمر جاء إلى الهند واضعاً نصب عينيه هدفاً محدداً، هو عبادة الذهب، لذا لم ترَ عيناه شيئاً آخر غيره، ولم يألُ جهداً في الحصول عليه بشتى الطرق، ولم يتردد أو يشعر بالغضاضة بإطلاق النار وقتل الشعب الهندي. ويبشر الشاعر بانتهاء هذا الاستعمار آجلاً أو عاجلاً، لأنهم ليسوا أبناء هذه الأرض أو معمّريها، لذا فحكمهم بلا أساس، ومصيره لا محالة إلى زوال. يقول:

الفرصة هي أن يترك هذا الضيف دولة الهند:
لأنه عابدٌ للذهب في هذه المملكة.
لم يعلق قلبه بشيء آخر أبداً.
لم يأخذ شيئاً مطلقاً من الغرب القاحل سوى الجفاء والظلم.
الغربي الأسود لم يطلق النار
سوى على قلوب الناس في هذا المصيد.

بالرغم أنه بقي مائتي عام في هذا المنزل.
بقي غريباً عن هذه الأسرة مرة ثانية.
رغم أن حكمه مشروع اليوم،
لكن قاعدة هذا الحكم بلا أساس![٥٠]

يستعرض الشاعر ما أصاب الهند من خلال حديثه إلى نهر الغانج، ويأتي اختيار الشاعر لنهر الغانج لما له من قدسية، فهم يعبدون إلهاً باسمه هو الإله غانغا. ويعكس الشاعر حال الهند من خلال حال نهرها المقدس، فالسحاب المتساقط والمياه الجارية من الجبال إلى مجرى النهر هي دموع حزن الهنود على حالهم، وجوف النهر الذي كان مليئاً بمحار اللؤلؤ أصبح يفيض بدلاً منها بتراب الجثث التي دُفنت في قاعه، ويحث الشاعر الشعب على الثورة على الظلم والقهر الذي يعانونه. يقول في "رودِ گنگ" (نهر الغانج):

قلتُ: يا غانج لما أنت صامت،
لما لا تثور كعادة البحر؟
توجهت إلى الصحراء، ماذا بك،
أو أنك شريك مجنونٌ في الحزن؟
لماذا نفسك حار ومحرق،
هل الرمال مشوية في جوفك؟
متى نسيم ربيع روضتك،
زينة حديقة شقائقك وياسمينك؟
متى روضتك المكسوة بالخضرة،
صوت طيورك الصاخبة؟
هل الأماني متوارية في الصدور مثل حبات اللؤلؤ؟
أأنت شريك في ألم الهند،
تتجرع الألم لأجل الهند؟

لا تخفي سر قلبك عني،
ثواباً، هيا نتحدث!
أنا جئتُ إليك ضيفاً
من ديار الطاجيك العامرة.
أنت تسير إلى كل باب منزل،
على باب القريب والغريب.
الأعشاب الرطبة في هوائك
تتمرد على الأرض على حافة الجدول.
في هوائك الينابيع الصافية
تشق صدور الجبال:
السحاب يبكي في هوائك،
الصحراء القاحلة مشوية الصدر.
في ظني، أنك جريتَ
ليس من ينابيع الجبال،
لكن من دموع العين الباكية،
عرق ودموع الفلاحين.
في قلبك بدلاً من حبات اللؤلؤ
الموتى أصبحوا تراباً،
بالرغم أن أهلك فلاحون،
فإنهم يحصدون في أرضك.
جعل الرجال الأشرار
عملة حديدية حملاً فوق كتفك.

تعبر فوق رأسك ليل نهار
القوافل نحو الغرب البعيد.
كل عربة تذهب مفعمة،
يجدر أن تكون حزينة لأجلك،
أم أنك رأيت لصاً يقتلع قلبك مجاناً ويحمله؟
يحمل حسن ربيعك،
آخر بذور مزرعتك،
يحمل لبن أمهاتك
رزق أطفالك المساكين،

ليكن ما يكون، أنت نهر عظيم،
أنت نصيب بحرٍ بلا حدود،
عش مثل الأنهار!
ثُر،
ثُر،
كن شاباً!(٥١)

بعدما عدّد الشاعر ظلم الاستعمار وتجبره في قصيدته السابقة، يختتمها مخاطباً نهر الغانج الذي عنون القطعة باسمه، مستغلاً رمزيته وقدسيته لدى الهنود، ليحثهم من خلاله على الثورة ضد الاستعمار الإنجليزي، قاصداً أن يقول لهم إنكم أيها الهنود شعب نهر الغانج المقدس، فعليكم أن تقاوموا الاستعمار، وأن مقاومتكم هذه جهادٌ مقدس من أجل الحفاظ على مقدساتكم التي لوّثها الإنجليز.

٢- طمس الحضارة:

كانت الهند مطمعاً للدول الاستعمارية كبريطانيا والولايات المتحدة، فتنافسوا على استغلال خيراتها وجعلوا كل شيءٍ فيها عرضة للبيع والشراء حتى حضارة الشعب وهويته، ويصور الشاعر

هذا من خلال حديثه عن ضريح تاج محل[٥٢] الذي بناه الإمبراطور المغولي شاه جهان[٥٣] بمدينة أغرا الهندية لتُدفن به زوجته ممتاز محل، فقد حوّل الإنجليز هذا الضريح المهيب إلى مضيفة، وتحولت المدينة الحضارية إلى مركزٍ يُباع كل شيء فيه ويُشترى حتى حضارة الشعب وهويته. يقول في قطعة "تاج محل" (تاج محل):

إليك هذا الطلب من حافة جمنا[٥٤]
إلى الساحل الواسع لبحر العرب.
اذهب واحكِ عن بومباي،
عن حواريها المضطربة.
انظر فإن المغيرين بالمكر والخداع
أصبحوا ضيوف بومباي من الغرب.
أقاموا بحسب هواهم، مضيفة على ساحل البحر الأزرق.
أسموها تاج محل،
يجعلها حياة الهند وحلها".
بومباي مضطربة ومليئة بالفوضى
تحولت إلى مركز للتسوق،
أصبحت مركزاً للفتن،
أصبحت سارقة للأكفان ومغسلة للموتى.
يمضي الليل والنهار في البيع والشراء بين تجار الويسكي
ليس فقط بقي وجود وفناء الشعب الهندي سلعة للتجارة،
لا قُدّر أن يجعلوها كعصير البرتقال،
يبحثون عن الفضة والكنز.
الغرب وآسيا المرابية،

حمل كل منهم رأساً من القبور.
وقفت أمريكا الشامخة في ناحية، مثل تركي مغير.
ومن ناحية إنجلترا سيئة الأساس، تدبر حيلة جديدة.[٥٥]

لم يقدّر البريطانيون التراث الحضاري الهندي، ولم يحاولوا الحفاظ عليه؛ ولكنهم نظروا إليه بعين التاجر الذي لا يتورع عن بيع أي شيء بالمال والذهب حتى الهوية والحضارة؛ فاستغلوا حضارة المدينة أسوأ استغلال، جعلوا ضريحها المهيب مضيفة، وجعلوا منها مركزاً للتسوق، نبشوا القبور ونهبوا ما فيها، سلبوا كل جمال بالمدينة، وتركوها معدمة كثمرة برتقالة تم عصرها وامتصاصها.

إن سيطرة المستعمرين على الشعوب وإخضاعها لا تنجح إلا بمساعدة وخيانة معدومي الهوية عبيد المال من أبناء الشعب، الذين يقدمون للمستعمر يد العون، ويخبرونه بمواضع القوة والضعف لدى شعبهم، فيبيعون وطنهم بالمال، الذي يضحون لأجله بالغالي والنفيس. يواصل الشاعر حديثه في قطعة "تاج محل":

العديد من الهنود عاقي الآباء،
مرتزقة قوة الدولار،
في الوسط مثل عبدٍ مطيع
عرضوا شأن بلادهم للبيع.
عرضوا دم وروح الهند،
عظام الهند البيضاء.[٥٦]

يقارن الشاعر بين حال أبناء وطنه طاجيكستان وما ينعمون به من سعادة وأمان– في رأيه– في ظل قادة ومسئولين ثقات وبين حال شعب الهند، ويوضح من خلال هذه المقارنة ما تعانيه الهند، وما ينقصها عن غيرها من الشعوب الأخرى. ويبدأ الشاعر مقارنته بالحديث عن طاجيكستان في الجزء الأول من القطعة الشعرية، ثم يتوجه للهند وأبنائها، يحثهم ألا يقفوا صامتين؛ فهم رغم غضبهم من استهانة المستعمر وعملائه بالغالي والثمين وعرضه للبيع، ورغم المتاجرة بالحلال والحرام، فإنهم يقفون صامتين، يخفون غضبهم، لذلك يحثهم الشاعر أن يثوروا لأنه لا نهاية لطمع

عبيد المال هؤلاء، فهم لا يفعلون ما يفعلون عن فقر، ولكنهم جشعون، لن تمتلئ عيونهم أبداً، حتى يملؤها تراب القبر بعد موتهم، لذا لابد من الثورة على هؤلاء العملاء، حتى لا يبيعوا حضارة الهند وملوكها. يقول:

لكنني رأيتُ كيف في بومباي،
يسعون وراء المصلحة.
بين التجار شاربي الويسكي
ينقضي الليل والنهار في البيع والشراء.
الهندي عاري القدم خلف الباب،
يقف ناظراً وهو مليء بالغضب.
رداً على هذا البيع والشراء
جعل صوت العجلات صامتاً.
توقفت الحياة عن الحركة،
الخلاصة ضاعت البركة من الأرض،
قال: هذه قوة العمل،
قوة الكَدْح في طريق الحظ.
كأس صبرنا ملآن،
غضبنا مثل سيف حاد.
إلى متى لا يكون لصوتنا أثر.
إلى متى نظل عبيداً للقادة؟
نحن على حافة النهر وظمآنون،
لا نجد رفيقاً في المنزل.
إلى متى لا يبذلوا هذا الجهد،

الأنهار لا تعرف طريقها.

إلى متى يكون كوكب الحظ مظلماً،

تصعب رؤية كنز كل بيت.

لن تشبع العين المحبة للدنيا أبداً من الفضة والكنز الذي لا يُحصى.

هذا المثل مشهور منذ القِدَم، بين جماعة الأُجراء:

تراب القبر الأسود هو وحده الذي يملأ عين المحب للدنيا.

العدو القديم الغادر، وجهه مثل المرآة،

أقول ثانيةً إنني عبدك،

يبيع حد السيف ذلك لآخر.

يجب أن نخرجه من البلد،

أن نفكر في راحتنا.

قدم خلفاء شاه جهان، تُقتَلَع من أرض الهند.

ليذهب الأعداء ويأتي الأصدقاء،

ليأتوا ضيوفاً بقلبٍ صافٍ،

حتى أفتح لهم سعيداً، مائدة الطعام ناثرة الدلال والنعمة.

أنتِ مضيئةٌ مثل الشعلة،

على حافة نهر جمنا، يا تاج محل![٥٧]

٣- الانقسام:

يرى الشاعر أن مشكلة الهند تكمن في عدم وجود قدوة وزعيم، يلتف حوله الهنود متناسين الفرقة والنظام الطبقي، الذي قوّض دعائم الوحدة في البلاد وأضعف أهلها؛ قدوة تعرف الشعب وتأخذ بأيديه إلى الطريق القويم، فالهنود مثل الحديقة المثمرة التي تحتاج إلى بستاني مخلصٍ وحصيف، يقيّم الصالح من الطالح، فيلقي طالحها ويرعى الصالح فيها، حتى يثمر أفضل ما فيه؛ وأفضل ثمار لهذه المرحلة هي الوحدة، والشعور بأن الهند وطن الجميع، فليعملوا على

تقدمها، حتى يكونوا أصحاب البلاد وسادته، ولا تتم معاملتهم كلاجئين فيها. يقول في "در يادِ كس" (في ذكرى شخص)، وهو عنوان يعكس رغبة الشاعر في إبراز القدوة والقيمة المفقودة في المجتمع الهندي، يقول:

من أذل شعبها هكذا؟
من الذي جعله في حيرة؟
ابحث عن البستاني، جده بسرعة،
حتى ينظر إلى هذه الحديقة الخربة،
حتى يقتلع الشجرة الجافة من جذرها،
ليلقي الفستق الخالي بعيداً،
حتى يزرع شجرةً أخرى،
يزرع فرعاً آخر وورقة نضرة.
عندما قلتُ "صديق"، أنت قلت لي.
ليس هناك أقيم في الدنيا من الكلام.
متى يأتي اليوم الذي نتصل؟
نضحك سعداء مثلكم؟
متى يحل اليوم الذي نقول من قلوبنا وأرواحنا بعدة لغات "منزلنا"؟
لماذا لسنا أعضاء بيتٍ واحد؟
لماذا لسنا معكم الآن؟
ليس في ملككم ظالم،
ليس هناك فقير، ولا شحاذ ولا حاكم.
أصبحتم أصحاب وطنٍ جميل،
"أصبحتم حكام الحديقة والروضة.[٥٨]

يتضح مما سبق أن الشاعر ميرزا تورسون زاده رأى وعايَش في رحلته إلى الهند معاناة شعبها بعين بصيرة، فهمت ووعت بشاعة المعاناة وأسبابها، وقد حاول الشاعر إلقاء الضوء على أبعاد تلك المعاناة وتوضيح أسبابها، كما حاول تقديم حلول للأزمات وسبلٍ لمقاومة المستعمر.

انتهج الشاعر الواقعية في التعبير عن أغراضه، وجاءت رموزه مستمدة من بيئة الهند ورموزها التاريخية والطبيعية، كنهر الغانج ونهر جامنا وغيرهما لتذكير الشعب الهندي بهويته. وقد اتسم أسلوب الشاعر في التعبير عن أغراضه بالبساطة والمباشرة، والوصول إلى المعاني بأقصر الطرق؛ وقلما لجأ الشاعر إلى المحسنات البديعية والبلاغية، كي يسهل وصول أغراضه إلى القراء.

الخاتمة

١- صوّر الشاعر ميرزا تورسون زاده في مجموعته معاناة شعب الهند على المستويات الثلاثة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

٢- كان حال الهند حينما زارها الشاعر قد بلغ حداً من السوء دفع الشاعر إلى الحزن نتيجة ظلم أهلها ومعاناتهم تحت الاستعمار البريطاني.

٣- ذكّر الشاعر –خلال حديثه عن مشكلات الهند– بجمال طبيعتها وثرائها، وامتلاكها مكونات العظمة والتقدم.

٤- كانت مشكلة الطبقية ومعاناة المنبوذين من أهم القضايا الاجتماعية التي عبّر عنها الشاعر، وذلك لمرجعيتها الدينية ورسوخها في المجتمع الهندي.

٥- عانى الشعب الهندي من الفقر والتشرد ولم يكن لدى العديد من أبناء الطبقات الدنيا مكان يأوون إليه.

٦- كان انعدام العدالة الاجتماعية هو السبب الرئيسي في الفجوة الواسعة في حياة طبقات الشعب الهندي وفئاته المختلفة.

٧- لم يندمج الإنجليز في الهند أو يتقاربوا مع أهلها، ولكنهم ظلوا غرباء رغم طول سنوات الاستعمار.

٨- انتقد تورسون زاده سياسات البريطانيين الاقتصادية لامتصاص خيرات الهند والعمل على إفقارها وتحويلها إلى مستعمرة لمصلحة بريطانيا.

٩- عانت الهند من ركودٍ اقتصادي جراء السياسات الاقتصادية للاستعمار البريطاني.

١٠- يرى الشاعر أن الهند آنذاك لم تعد مكاناً يصلح للحياة الهانئة السعيدة، ولا مكاناً يمكن أن يذهب إليه الضيوف والسائحون بتفاؤل مثلما كان من قبل.

١١- عمل الاستعمار على طمس الحضارة الهندية وإضعاف هوية شعبها كي تسهل السيطرة عليهم.

١٢- عمد الشاعر إلى الواقعية في التعبير عن معاناة الهند وشعبها، واتسم أسلوبه بالبساطة والمباشرة، والوصول إلى المعاني بأقصر الطرق، وقلما لجأ إلى المحسنات البديعية والبلاغية.

١٣- جاءت الرموز في المجموعة الشعرية مستوحاة من بيئة الهند ومقدساتها وحضارتها لتذكير الهنود بهويتهم واستنهاضهم لمقاومة المستعمر.

الهوامش

[۱]– هو ظهير الدين مُحَمَّد بن ميرزا عمر شيخ بن سلطان أبو سعيد بن ميرزا مُحَمَّد بن ميرانشاه بن تيمورلنك. ولد في عام ۸۸۸هـ، وورث حكومة فرغانة بعد موت أبيه، حارب ملوك الأوزبك والتتار ۱۱ عاماً، أراد إخضاع الهند، وهزم إبراهيم لودي في ۹۳۲هـ، وخل دلهي منتصراً، أسس دولة المغول في الهند. توفى في التاسعة والأربعين من عمره عام ۹۳۷هـ. (دهخدا، لغت نامه، جلد سوم: الغاف– بسيطله، مؤسسهٔ انتشارات وچاپ دانشگاه تهران، چاپ دوم از دورهٔ جديد: ۱۳۷۷هـ، ش. ص۳۸۳۷.

[2]- Fritz BlaCKWell, The British Impact on India, 1700–1900, WORLD HISTORY: 1750–1914, Volume 13, Number 2 Fall 2008, p:34.

[۳]– علم خان كوچراف، هميشه با خلق ووطن، فصلنامه رودكى، شمارهٔ ۲۸، رايزنى فرهنگى ج. ا. ايران در تاجيكستان، پاييز ۱۳۸۹، ص۱۷۳.

[4]- Худойназар Асозода, Адабиётӣ Тоҷик дар садаи XX, вазорати фарҳнги ҷумҳурии Тоҷикистон, Душанбе “Маориф” 1999, с281:283.

[۵]– شاعر معاصر تاجيك، دانشنامهٔ جهان اسلامى.

[۶]– الكمسمول هو اتحاد الشباب الشيوعي اللينيني في الاتحاد السوفيتي.

[7]- гулназар, адибонтоҷикистон, душанбе, 2002, с.25:26.

[۸]– مرجان على اكبرزاده زهتاب، تحليل منظومهء داستانى "از گنگ تا كرِمل" از شاعر معاصر تاجيک، ميرزا تورسون زاده، فصلنامه علمى "پژوهش زبان وادبيات فارسى" شماره شصت وسوم؛ زمستان ۱۴۰۰، ص۱۰۱.

[9]- гулназар, адибонтоҷикистон, с 27.

[۱۰]– پريسا سنجابى، روشن رحمانى: تورسون زاده، مركز دائرة المعارف بزرگ اسلامى، ٤ آبان ۱۳۹۸. مرجان علي اكبرزاده زهتاب، تحليل منظومهء داستانى "از گنگ تا كرِمل"، ص۹۸.

[۱۱]– مرجان علي اكبرزاده زهتاب، تحليل منظومهء داستانى "از گنگ تا كرِمل"، ص۹۹. مرجان علي اكبرزاده، نگاهى به منظومهٔ تعليمى– غنايى "حسن ارابه كش"، از ميرزا تورسون زاده، شاعر تاجيک، فصلنامهٔ تحقيقات تعليمى وغنايى زبان وادب فارسى، دانشگاه آزاد اسلامى، شماره هفدهم– پاييز ۱۳۹۲، ص۱۳٦. حسين يزدانى وديگران، تحول مضمون "عشق به وطن" در شعر معاصر تاجيكستان، فصلنامهٔ تخصصى سبک شناسى نظم ونثر فارسى (بهار اد) سال دوازدهم– شماره سوم– پاييز۱۳۹۸، شماره پياپى٤٥، ص۳۸۱.

[۱۲]– شادم،

اما ميخورم غمهاي خلقِ ديگرى،
در نظر مياورم تاراج گشته كشورى.
خلقِ هندوى ستم كش را رسان از ما سلام،
زى سرودِ من، اگر دارى تو هم بال وپرى.

من امینم، میرسد هر یک صدای ما به او،
هر یک آوازِ پر از میهر ووفای ما به او
کوهساران هیچ نتوانند سدِ ره شوند،

میبرد بوی معطر را هوای ما به او. М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, Нашриёти Давлатии Тоҷикистон, Сталинобод 1954, с5.

[١٣]– سابينو أكوافيفا، إنزو باتشي، علم الاجتماع الديني: الإشكاليات والسياقات، ت: عز الدين عناية، هيئة أبو ظبي للثقافة ٢٠١١، ص١٦٢.

[١٤]– سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٥٥، ص٨٢.

[١٥]– عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ١٩٨١م، ص٤٩: ٥٢.

[١٦]– حشمت السادات معينيفر، بررسي ريشههاي نظام كاست در هند، فصلنامهء مطالعات شبه قاره، دانشگاه سيستان وبلوچستان، سال چهارم، شماره دهم، بهار ١٣٩١. صص٩٨،٩٢.

[١٧]– أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى: الهندوسية، الجينية، البوذية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٤، ص٥١، ٥٤. عبد الله حسين، المسألة الهندية، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م، ص٤٤.

[١٨]– إيمان عطية، الهند: ٢٠٠ مليون منبوذ في ظل نظام طبقي صارم، جريدة القبس. غوستاف لوبون، حضارات الهند، ت: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م، ص٥٤٧.

[١٩]– عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص٤٦٣: ٤٦٤.

[20]- Azizi Rahman and others, The British Art of Colonialism in India: Subjugation and Division, Peace and Conflict Studies, Volume 25, Number 1, 5- 2018, p:4.

[٢١]– كلمة "MAXAB" "مخو" في الطاجيكية تعني البرص أو الجذام؛ وهو مرض جلدي ليس له علاج. Фарҳанги тафсирии забони тоҷикӣ, ҷилди 1, Академияи илмҳои ҷумҳурии Тоҷикистон, Душанбе, 2008, с773.

[٢٢]– مرا روزي حكايت كرد بابا،
كه بشنو، جانِ بابا، قصهاي را:
"زماني بود بيرون از سمرقند.
به چشمِ كس نمايان كُلبهای چند.
در آن منزِل، كه دور از ديگران بود
مخوهارا جدای يک مكان بود.
نمیافتاد آنهارا گذاری

نه از یاری، نه از خویش وتباری.
نمی‌دیدند روز وروشنای
به دنیا غیرِ خواری وگدای.
مخو میگشت روزی گر نمایان
از او پیر وجوان میشد گریزان.
همیشه از خلایق دور میگشت،
به مثلِ زندهٔ درگور میگشت.
اگر اورا کسی میدید در راه،
رفیقِ خویش را میکرد آگاه،
که ای جوره!
به اطرافت نظر کن،
"مخو آمد، مخو آمد، حذر کن".
مخوکاسه گهی در دستِ مسکین
خبر میداد با آوازِ غمگین،
که: ای آزادکس، بگریز از ما،
نرس هرگز، نرس، هرگز مخو را!". М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с6,7.

[۲۳]– برايد با تبسم گر زِ خِرگاه
خیانتکارِ جمعیت چو روباه،
برو خلقِ ستم‌کش را خبر کن:
مخو آمد، مخو آمد، حذر کن!" М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с8.

[۲۴]– حکایت میکنم با قلبِ پرشور
حیاتِ مردمانِ زنده در گور.
به روی قبرِ آنها گُل نروید،
اگر روید، کسی آنها نبوید.
با عالم کَسبِ آنها جای‌روبیست.
فقط ذم‌برکشی سنگ‌کوبیست.
فرو بر زیرِ کانها مُفت رفتن،
به ناخن آهن وپولاد سُفتن،

هزار الفاظِ بد ناحق شنیدن،
لبانِ خویش با دندان گزیدن،
چه نقصان دارد این مردم، که این سان
ندارد قدر وقیمت مثلِ اینسان؟
ندارد علتی،
ظلمِ زمانه
نمود آنرا به بدبختی روانه.
مگر این کسته اولادِ بَشَر نیست،
که از او دیگران را جز حذر نیست؟!
مگر این رسم یک رسمِ قدیم است،
مگر چُهره گنه‌کارِ عظیم است؟!
که او مانَد قدَم گر در خیابان،
برهمن را کند خاطرپریشان.
به او گویند، که: "ای مردِ درویش،
پلیدی تو، پلیدی تو، نیا پیش!"
چمر را در میان یک ریسمانیست،
که این از بندگی اورا نشانیست.
برهمن را فتد گر سایهٔ او،
نماید شست‌وشویش دایهٔ او.
چمر گیرد اگر دستِ ترموهٔ،
حذرآمیز گویندش، که:
"هَی! هَی!"
هزاران سال باز این طرفه مردم
زِ حقِ زندگانی گشته محروم.
به این آیین واین رسمِ خبیثی
چرا راضیست لاردِ انگلیسی؟!

به ملکِ ناشناسی با رفیقان

شدم یک ماه مثلِ دوست میهمان.
کسی با من در آن جا رو به رو شد،
زِ جان ودل شریکِ گفتگو شد.
چرا سر تا به پا لرزید وننشست؟
نیافشرد از برای چی مرا دست؟
چو آهوی بیابانی نظر کرد
به هر سوی،
مگر از من نظر کرد؟
به من او گفت با آوازِ خاموش:
"نمیسازم ترا هرگز فراموش".
روان گشتیم با چندین وسیله
به نزدِ هندوانِ این قبیله.
مرا هرگز نخواهد رفت از یاد
رُخِ آن مردمِ مظلومِ ناشاد،
سراشکِ دیده‌های غصه‌خانه،
دلِ تیرِ ملامت را نشانه. М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с8;11.

[٢٥]– انظر: دستور الهند عام ١٩٤٩ (المعدل ٢٠١٦)، ت: المؤسسة الدولية للديمقراطية والانتخابات، الباب الثالث: الحقوق السياسية، مادة ١٥، ص٢٣.

[٢٦]– ولد عام ١٨٦٩م في مدينة بوربندر بالقرب من مومباي في عائلة هندوسية، اسمه في الأصل موهانداس كرمشاند غاندي، ثم أسماه الشاعر رابندراناث طاغور فيما بعد بالمهاتما أي الروح العظيمة. كان والده كرمشاند أحد كبار المسؤولين المحليين في الحكومة البريطانية في بومباي. بذل غاندي جهوداً عظيمة لتحرير الهند من الاستعمار البريطاني، حتى تم إنهاء الاحتلال واستقلال الهند في عام ١٩٤٧م. (شروين وكيلي، گاندی، انتشارات داخلی مؤسسه‌ی فرهنگی خورشید راگا، امرداد ١٣٩٢هـ.ش، ص٩، ١٣.)

[٢٧]– إيمان عطية، الهند: ٢٠٠ مليون منبوذ في ظل نظام طبقي صارم.

[٢٨]– عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص٤٧٦: ٤٧٧.

[٢٩]– بيبان تشاندرا، تاريخ الهند الحديثة، ت: أحمد القاضي– رانيا مُحَمَّد فوزي، ط١، دار العلوم للنشر والتوزيع، يونيو ٢٠٢٣،ص١٣٨:١٣٧.

[٣٠]– در طلبِ نان شده جمع هلاک.

خسته وافتاده گروهی به خاک.
دیده من این را جگرم پاره شد،
اشک روان از برِ رخساره شده.
این همه در کوچهٔ کلکتا بود،
شهرِ پر از هرزه وسفسطه بود.
گرچه سرِ خلق شد از غم سفید،
پر بوَد اما دلِ او از امید.
پیکرِ آن گرچه چو خاکستر است،
لیک نهان در دلِ او اخگر است.
گرچه به غارت روَد این سرزمین،
باز در آن گنجِ روان را بُبین.
میحنتِ دهقانپسر وکارگر
از همه اشیای جهان مفتتر.
از چی جوانان همه قامتخمند؟
از چی ندارند سرِ خود بلند؟
از چی بوَد شهر پر از کور ولنگ؟
از چی سرِ مردمِ مسکین گرنگ؟
این مگر افسانهٔ بنگاله است،
قصهٔ بدبختیِ صدساله است!.. M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, c15:16. ...

[٣١] **– سفر کردم به هندوستان ودیدم**
بسی اینگونه مسکین آدمان را،
به گوشِ خویش هر جای شنیدم
سرودِ آرزو، امیدشان را:

چرا در کشورِ خود آشیانی
همه پرندگان دارند و ما نی؟
عقابان در فضای کوهساران
برای خود جهان دارند و ما نی؟"

چو آید شب نمیدانند آنها
سرِ خود را کجا مانند وخوابند،
به زیرِ سر در آن شبهای تاریک
چه سان خشت وکلوخي را گذارند.

درختِ سیرشاخ وبرگِ منگا
تمامِ روز وشبها سایه‌بان است،
به بالای سرِ آنها چو سیمرغ
پرِ خود را کشاده پاسبان است.

همه دهقان و فرزندِ زمینند،
ولیکن در زمین جای ندارند،
برای زیستن در روی دنیا
تمامِ عمر ماوای ندارند.

به شهر آیند اگر، در هیج شهری
به روی خود درِ بازی نبینند:
به غیر از طالعِ پَست وسرِ سخت
دیگر یاری ودمسازی نبینند.

زمین سخت بلند است آسمان هم،
تمامِ شب ستاره میشمارند:
به غیر از خواری وزاری کشیدن
دیگر گویا علاجی هم ندارند.

در این هنگام دستِ پرتوانی
گرفته از بغل بردارد از خاک.

بگوید: آدمی تو، قدرِ خود دان،
دیگر منشین پریشان بر سرِ خاک!

به این روزِ سیاهِ مردمِ هند
ندارند آب وخاکِ ما گناهی.
اگر خواهی، که بختِ خویش یابی،
قدَم نِه با عدالتخواه راهی.

به کامِ خویش کن کارِ جهان را،
فضا را وزمین را وزمان را.
نخواهی کرد آن دم آرزوی
سعادتمندیِ پرندگان را". M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с43:45.

[۳۲] **– باغچه‌ای در دلِ کلکتا بود،**
شان وشرف یافته از اهلِ خود.
چند تن از خلقِ دوصد میلیون
کرده به خود باغچه‌ای را مکان،
قرضِ گرژدنی ادا میکنند،
بر وطن وخلق وفا میکنند.
مانده اگرچه زِ وطن دور چند،
با وطن، اما نَفَسِ خود کشند. M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с47.

[۳۳] **– دیدنِ غارت‌شده هندوستان–**
حالتِ طاقت‌شکنِ هندویان،
دیدنِ یک تودهٔ بی‌درد وغم–
مردمِ بیگانه زِ لطف وکرم،
دیدنِ بیچاره گدایانِ راه–
مردنِ صد مرد وزنِ بی‌پناه،
دیدنِ بیگانهٔ شیطان‌هنر،
از پسِ شیطانیِ خود سودور،

دیدنِ میدانِ برادرکُشی–
ساختن از خونِ کسان دلخوشی،
دیدنِ یک سو همه ویرانه‌ها،
سوی دیگر سیرقَبَط خانه‌ها،
در دلِ ما کوه‌صفت ضم شدند–
کوهِ بزرگِ الم وغم شدند. .M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, c46

[٣٤]– بدیدم در پسِ کوهِ هیمالای
زمینِ سبز وزرخیزي سراپای.
اگرچه گنجهایش پربهایند.
ولیکن مردمانِ آن گدایند. .M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, c11

[٣٥]– انظر: بیبان تشاندرا، تاریخ الهند الحدیثة، ص١٣٥.

[٣٦]– غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص١٩٥. مُحَمَّد بن عبد الله السلمان، سیاسة بریطانیا الاستعماریة للهند، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ملحق العدد التاسع، أبريل ١٩٩٣م.ص٢٦. British Imperialism in India, The Age of Imperialism, p:357.

[٣٧]– سماح سلام، الاحتلال البريطاني في شبه القارة الهندية، مجلة المقتطف المصري التاريخية– ع٤– مارس ٢٠١٠م، ص٧٦. مُحَمَّد بن عبد الله السلمان، سیاسة بریطانیا الاستعماریة للهند، ص٢٦.

[٣٨]– انظر: بیبان تشاندرا، تاریخ الهند الحدیثة، ص٢٤٩:٢٤٨.

[٣٩]– نهر ينبع من جبال الهيمالايا ويصب في خليج البنغال. يبلغ طوله ٢٤٢٠كم تقريباً، وهو نهر مقدس يتبارك به الهندوس ويقدسونه ويغسَل به العظماء والكبراء عند وفاتهم، وفيه يرمون جثث موتاهم، ويغسلون معابدهم بمياهه لتطهيرها، ويستخدمون مائه في إقامة الشعائر الدينية للبراهمة، ويُعتقد أن الغسل في مياهه يزيل جميع الخطايا ويبارك المرء بالجنة. (عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص٢٠: ٢١. George M.William: Handbook of Hindu Mythology, Oxford University, p:135.)

[٤٠]– این همه را بینی تو در هندکوش
در سرِ کوهِ ابدی نقره‌بوش.
هیچ شنیدی، که درخت از بدن
بال برآرَد به هوای چمن.
نخل در آن جا به سر انداخته،
از پرِ تاووس کذهی ساخته.
گشته در آن جا وطنِ جانوران–

بایترین صیدگهی در جهان،
نعرهٔ فیل آید وبَبر وپلنگ،
صوتِ خوشِ بلبُلکان رنگ– رنگ.
هست زمینِ زخم پر از مغاک
ك– از نَمِ او میشود آدم هلاک.
میمونِ پاسوخته، دُم‌سوخته،
کِرمِ چو گوهر به شب افروخته.
این همه در بیشهٔ هندوستان
واهمناکند به پیر وجوان.

گر بروی تو به تماشای با غ
میکنی از بوی معطر دِماغ.
هیچ ندیدی تو چنین چارمغز،
هیچ بدینسان اناناسهای نغز.
گر به گُلش دیدهٔ خود وا کنی،
یادِ رخِ دخترِ زیبا کنی.
هیچ ندیدی تو چنین آبِ رود،
مثلِ خُمِ نیلگری کب– کبود.
زرد وگلابی حشراتِ زیاد
بینی واصلا نبرآری زِ یاد.
این همه در دامنِ گنگ است، گنگ،
قصهٔ شورافکنِ گنگ است، گنگ… M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с12:13.

[٤١]– **قوهٔ پرجاذبهٔ این دیار**
کرد دلِ مردکِ غربِ شکار.
نیست حدودی به تمنای او،
تُرشیِ رو، بینی بالای او.
داغ– داغهٔ او زِ حد افزون بود،
از خردِ آدمی بیرون بوَد.

در دلِ او هیچ ندارد اثر
خوبیِ این مملکتِ خاکزار،
قلهٔ خوش‌منظرهٔ هندکوش.
هر کمر وهر درهٔ هندکوش.
ابرِ بلندِ سرِ این کوهِ پیر
لذتِ پروازِ عقابِ دلیر...
میرود از پیرهٔ کوچه‌باغ
زینتِ آن باغ نکرده سراغ.
میگذرد از برِ ویرانه‌ها،
مدرسه وآبده وخانه‌ها،
میگذرد او ننموده نظر
بی هیجانِ دل وشوقی به سر.
عشقِ گل ونالهٔ بلبل اثر
هیچ ندارند به این رهگذر.
آمد وبر گردنِ هندو نشست،
هر چه که میخواست، گرفت او به دست،
پوستِ روباه وپلنگان گرفت،
حاصلِ بیچارهٔ دهقان گرفت،
پخته وابریشم وگندم گرفت،
نانِ دهانِ همه مردم گرفت:
شیرهٔ این بایزمین را کشید،
خونِ دلِ خلقِ گدا را مکید. М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с13: 14.

٤٢- مردمانت اگرچه دهقانند،
در زمین تو خوشه‌چینانند.
کرده اند آدمانِ بدکردار
یک پلِ آهنین به دوشَت بار.
روز وشب از سرَت کنند عبور
کاروانها به سوی غربِ دور.

هر وگانی که میرود لبریز،
شاید از بهرِ توست غم‌انگیز،
یا مگر دیدهٔ، که بی‌مزدی
دلِ تو کَنده میبرَد دزدی؟
میبرَد حسنِ نوبهارت را،
واپسین تخمِ کشتزارت را،
میبرَد شیرِ مادرانِ تو را
رزقِ بیچاره کودکانِ تو را. .M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, c19: 20

[٤٣]– دستِ طمع را سوی هندو دراز.
"دُرِّ گران را به کفِ من بنِه"
زر بِدِه وزر بِدِه وزر بِدِه". .M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, c15

[٤٤]– آنة، اسم عملة صغيرة في الهند.

[٤٥]– لاردهای انگلیسی دیر باز
رفت‌وآ دارند مانندُ "مجاز".
خوب میدانم، که سوی این دیار
ن–آمدی مانندِ قومِ سودخوار.
ن–آمدی، تا که جهانگیری کنی،
ظلمِ نو بخشی وجانگیری کنی!
ن–آمدی تا خونِ هندو را خوری،
بختِ بد آری ونفعِ صد بری.
آمدی یابی تو نانِ خویش را،
زنده داری خُرد جانِ خویش را.
گشنگی پرتافتت بیخَیر وخوش
در پسِ کوهِ بلندِ هندکوش،
زِ جهانگردِ جوان کابولی،
کودکِ خردی ودر حکمِ گلی.
بچگان باید که در این سنّ وسال
بهره‌ها گیرند از فضل وکمال:

بهره‌ها از دولتِ عمرِ جوان،
از نوازش‌های خندان مادران:
بهره‌ها از روزگارِ پر–امید،
از شکوفتن‌های اقبالِ سفید.
در دیارِ اعظمِ پرُشانِ من،
ای، چی خوش‌بختند فرزندانِ من.
میشود آیندهٔ آنها عیان
پیشِ چشمِ من چو دنیای کلان.
بختِ تو در این دیارِ بی‌پناه.
خود سیاح بود باز بدتر شد سیاه،
در خیابان الفتِ غم میشوی،
پیشِ پای ناکسان خم میشوی.
میکنی با رنگ وبارِ خویش باک
موزه‌های بخت‌دزدان را زِ خاک.
آنّه‌ای را چون خدای میدهند.
نرز گویا بر گدای میدهند.
خاندانی را تو با این آنّه‌ها
مینمای "سیر" گویا دایما.
هم پدر، هم مادرِ بیکارِ تو
چشم بسته در رهِ بازارِ تو.

مثلِ تو سیاحِ خردِ نامراد،
در جوانی من ندیدم روزِ شاد.
میشنیدم از پدر شبهای تار
مثلِ تو افسانه‌های بیشمار.
او به من میگفت: در سمتِ جنوب
کشوری بسیار زیبایست و خوب.
صورتِ آن مملکت دیگر بوَد،

آبهایش نقره، خاکش زر بوَد.
پَست‌تر هر سال گردد آفتاب،
یک قدِ نَیزه به روی خاک وآب".
من کنون از ملکِ خرّم آمدم،
چون وکیلِ خلق اعظم آمدم.
آمدم دیدم تو را با چشمِ خود
در خیابانِ لبِ بحرِ کبود.
می‌دوی، با چشمِ پُرنَم می‌دوی،
پیشِ پای ناکسان خم میشوی.
میکنی با رنگ وبارِ خویش پاک
موزه‌های بخت‌دزدان را زِ خاک. М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с32:36.

[٤٦]– انظر: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص٤٣٣: ٤٣٤.

[٤٧]– مُحَمَّد بن عبد الله السلمان، سياسة بريطانيا الاستعمارية للهند، ص١٤

[٤٨]– این مگر افسانهٔ بنگاله است،
قصهٔ بدبختیِ صدساله است!..
میگذرد مغربیِ خودپسند
کرده سر وبینی خود را بلند.
بازیکنان چوب– عصا را به دست
شام وسحر راه رود مثلِ مست.
در سرِ او نیست به غیر از غرور،
در دلِ او مقصدِ عیش وسرور.
بهرِ چی این مغربیِ دل‌سیاه
کرده حریصانه به مشرق نگاه؟
بُرد دلش را مگر این سرزمین،
بوی خوشِ این چمنِ نازنین؟
یا هوسِ دیدنِ بوزینه‌ها،
یا به کف آوردنِ گنجینه‌ها؟

نقل نمایند، که از غربِ تار
کرد سفر آدمِ بیگناه وعار.
نام برآورد به سنگین‌دلی،
تخمِ ستم کاشتن وجاهلی
در دلِ او هیچ ندارد اثر
ناله وفریادِ پدر یا پسر،
زینتِ باغ وچمنِ دل‌فریب،
روی گل وصوت خوشِ عندلیب،
قصر وبناهای قدیمیِ او...
شهرتِ دیرینِ عظیمیِ او...
با سرِ پرفتنه وبا کرّ وفر
میکند از بینِ خلایق گذر.
میکند این غربیِ روبه‌مجاز
دستِ طمع را سوی هندو دراز.
"دُرِّ گران را به کفِ من بنِه"
زر بِدِه وزر بِدِه وزر بِدِه".
میگذرد دورتر از ازدحام
به نظرِ دقت وبی احترام.
گاه نمایان شود او چون سپاه
گاه به نمایان گدایانِ راهو
گاه چو یک گربهٔ پاینده‌موش،
گاه گریزنده چو موشِ خموش.
هر چه که میخواست در این سرزمین،
پُرّه درآورد به زیرِ نگین. М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с16: 17.

[٤٩]- غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص٥٥٤: ٥٦٠.

[٥٠]- فرصتِ آن است، که این "میهمان"،
ترک کند کشورِ هندوستان:
چونکه در این مملکت این زرپرست.

هیچ به چیزِ دیگری دل نبست.
سر زند از مغربیِ بیکرم،
چیزِ دیگر غیر جفا وستم.
تیر نزَد مغربیِ دل‌سیاه
جز به دلِ خلق در این صیدگاه.
گرچه دوصد سال در این خانه ماند.
باز به این عایله بیگانه ماند.
حکمِ وی امروز اگرچه رواست،
پایهٔ این حکم ولی بی‌بقاست! .M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, c17

٥١- گفتم: ای گنگ از چی خاموشی،
از چی دریاصفت نمی‌جوشی؟
سر به صحرا نهاده‌ای، چونی،
یا که در غم شریکِ مجنونی؟
نفسَت از چی گرم وسوزان است،
ریگ پیشِ دمِ تو بریان است؟
کو نسیمِ بهاریِ چمنَت،
زینتِ باغِ لاله وسُمَنَت؟
کو چمن‌زارِ سبزپوشِ تو،
صوتِ مرغانِ پرخروشِ تو؟
یا نُهُفتی درونِ سینه مگر
آرزوها چو دانه‌ها گهر؟
یا شریکی به دردِ هموطنان،
میخوری غم برای هندوستان؟
رازِ دل را نهان مکن از من،
از برای ثواب، آ به سخن!
آمدم من به نزدِ تو میهمان
از شکوفته دیارِ تاجیکان.
تو روانی به هر درِ خانه،

بر درِ آشنا وبیگانه.
به هوای تو سبزهٔ نمناک
در لبِ جوی سر کشد از خاک:
به هوای تو چشمه‌های صاف
سینهٔ کوه را کنند شکاف:
در هوای تو ابر گریان است،
دشتِ بی‌آب سینه‌بریان است.
به گمانم، که گشتهٔ جاری،
تو نه از چشمه‌های کوهساری،
بلکه از آبِ چشمِ گریانی،
عرق واشکهای دهقانی.
در دلت جای دانه‌های گهر
مرده‌هایند گشته خاکستر،
مردمانت اگرچه دهقانند
در زمینِ تو خوشه‌چینانند.
کرده اند آدمانِ بدکردار
یک پلِ آهنین به دوشَت بار.
روز وشب از سرَت کنند عبور
کاروانها به سوی غربِ دور.
هر وگانی که میرود لبریز،
شاید از بَهرِ توست غم‌انگیز،
یا مگر دیدهٔ، که بی‌مزدی
دلِ تو کَنده میبرَد دزدی؟
میبرَد حسنِ نوبهارت را،
واپسین تخمِ کشتزارت را،
میبرَد شیرِ مادرانِ تو را
رزقِ بیچاره کودکانِ تو را.

هیچ چه باشد، بزرگ روداستی،
حصهٔ بحرِ بیحدودستی،
رودوارانه زندگانی کن!
جوش زن،
جوش زن
جوانی کن! .M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, c18: 20

٥٢- يعد أحد أهم الأبنية في الهند، وهي مقبرة بالقرب من "آجرا" على ساحل "جمنا"، بناه الملك شاه جهان تخليداً لذكرى زوجته نور جهان أو نور محل التي توفت أثناء حملها، والمقبرة مبنية كلها من الرخام الأبيض ومزدانة بنقوش ملونة وكتابات عربية، وبها آيات قرآنية، وهي تضم ضريحين أحدهما للملكة نور جهان والآخر لشاه جهان، وقد بدأ بناء هذا الأثر في ١٦٣١م، واستغرق بناؤه اثنين وعشرين عاماً. (دهخدا، لغت نامه، جلد چهارم: بسیطه- تبورک، ص٦١٦٤.)

٥٣- هو شهاب الدين بن جهانجير، من ملوك دولة باب ومن أحفاد تيمور الجورجاني. كان محباً للفن وراعياً له، وازدهرت في عهده الفنون في الهند، نقل الكتاب والأدباء حكايات عن ذوقه وثقافته هو وزوجته ممتاز محل. بنى ضريح تاج محل في مدينة آجرا ليدفن فيه زوجته، ويظهر في هذا البناء تأثير السبك المعماري الإسلامي وخاصة الإيراني، وقليلاً ما يلاحظ تأثره بالسبك الهندي. (دهخدا، لغت نامه، جلد نهم: زراد- شمس، ص١٤٠٦٩.)

٥٤- جمنا أو يامونا، هو نهر مقدس يتدفق من جبل كالليندا، وعند مولد "كريشنا" اضطر والده "فاسوديفا" إلى تبديل أطفال زوجتيه وعبور نهر كاليندي الهائج، وساعدته إلهة النهر ذهاباً وإياباً بأطفاله، وكان نهراً مقدساً لدرجة أن شرب مائه أو الاستحمام في تدفقه الإلهي من شأنه أن يطهر أي شخص من خطاياه ويمنحه الفضل لكسب الجنة. (George M.William: Handbook of Hindu Mythology, p. 174:175)

٥٥- از لبِ جمنه بر تو این مطلب
به کنارِ وسیعِ بحرِ عرب.
رو حکایت نمای از بمبای
از پرآشوب کوچهای وی.
بین که غارتگران به مکر وفریب
شده میهمانِ بمبای از مغرب.
ساخته در کنارِ بحرِ کبود،
میهمانخانهای به میل خود.
نامِ آن را نهاده تاجمحل،

میکند آن حیاتِ هند و حل".
بمبای بیقرارِ پرغوغا
ز– او عوض شد به مرکزِ سودا،
مرکزِ بابِ فتنه‌جوی شد،
هر کفن‌دزد ومرده‌شوی شد.
بینِ سوداگرانِ ویسکی‌نوش
میرود روز وشب خرید وفروش
نه فقط مانده‌اند در سودا
بود ونابود خلقِ هندو را،
نیاکي کرده شیرهٔ نارنج،
جستجو میکنند سیم وگنج،
غربی‌ها آسیای سودخور
هر دو برداشته سر از یک گور.
یک طرف قدبلند امیریکای
ایستاده چو ترکِ یغمای،
یک طرف انگلیسِ بدبنیاد

میکند حیله‌های نو ایجاد. M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с38:39.

[٥٦]**– چند از هندوانِ عاقِ‌پدر،**
زرخریدانِ قوهٔ دالّر،
در میان چون غلامِ حلقه‌بگوش
مانده شانِ دیارِ خود به فروش.
مانده هم خون وجانِ هندو را،
هم سفید استخوانِ هندو را M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с39.

[٥٧]**– لیک دیدم چگونه در بمبای،**
مصلحت میکنند پی در پی.
بینِ سوداگرانِ ویسکی‌نوش
میرود روز وشب خریدوفروش.
هندوی پابرهنه در پسِ در،

میکند پرغضب ستاده نظر.
او جواباً به این خریدوفروش
کرد آوازِ چرخها خاموش.
زندگی بازماند از حرکت،
مختصر گم شد از زمین برکت.
گفت: این است زورِ کارگری،
در رهِ بخت جهدِ رنجبری.
کاسهٔ صبرِ ما، که ابریز است،
غضبِ ما چو تیغِ دم‌تیز است.
تا کی آوازِ ما ندارد اثر.
تا به کی ما غلامِ فرمانبر؟
در لبِ جوی تشنهٔ آبیم،
یار در خانه ونمییابیم.
تا کی این جهدها عمل نکنند،
رودها راهِ خود بدل نکنند،
تیره تا کی ستارهٔ بخت است،
گنج هر خانه، دیدنش سخت است.
نشود سیر چشمِ دنیادار،
هیچ ای سیم وگنجِ بیمقدار.
از قدیم است این مثل مشهور
در میانِ جماعهٔ مُزدور:
چشمِ دنیاپرست را تنها
میکند سیر خاکِ گور سیاه".
دشمنِ پرفریبِ دیرینه،
که به روياست مثل آینه،
باز گویم، که من غلامِ توام،
میفروشد به دیگری آن دم.
باید آن را زِ ملک خویش کنیم،

فکرِ آسودگیِ خویش کینم.
قدمِ وارثانِ شاهِ جهان
کَنده گردد زِ خاکِ هندوستان.
دشمنان رفته دوستان آیند،
با دلِ صاف میهمان آیند،
تا کشایم به نزدشان شادان
ناز ونعمت‌نثار دسترخوان.
تو فروزنده مان چو یک مشعل،
در لبِ رودِ جمنه، تاج‌محل! M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с41:42.

[۵۸]– خلقِ آن را کی چنین خوارش نمود؟
در پریشانی کی وادارش نمود؟
جستجو کن باغبان را، زود یاب،
تا نظر سازد به این باغِ خراب،
تا درختِ خشک را از بن کَنَد،
پسته‌های پوچ را دور افکَنَد،
تا برویانَد درختِ دیگری،
شاخِ نو رویانَد وبرگِ تری.
چون بگفتم "دوست" تو گفتی به من،
نیست قیمتتر به دنیا ز– این سخن.
کَی شود روزی که پیوندیم ما؟
شادمان مثلِ شما خندیم ما؟
کَی شود روزی که در چندین زبان
ما هم آریم از دل وجان "خانه‌مان!؟
عضوِ یک خانه چرا ما نیستیم؟
از چی حالا با شما ما نیستیم؟
نیست در ملکِ شمایان ظالمی،
نه فقیر، نه گدا، نه حاکمی.
صاحبِ زیباوطن گردنده‌اید،
حاکمِ باغ وچمن گردیده اید. M.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, с28:29.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

١ – أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى: الهندوسية، الجينية، البوذية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٤م.

٢ – بيبان تشاندرا، تاريخ الهند الحديثة، ترجمة: أحمد القاضي– رانيا مُحَمَّد فوزي، الطبعة الأولى، دار العلوم للنشر والتوزيع، يونيو ٢٠٢٣م.

٣ – دستور الهند عام ١٩٤٩م (المعدل ٢٠١٦)، ترجمة: المؤسسة الدولية للديمقراطية والانتخابات.

٤ – سابينو أكوافيفا، إنزو باتشي، علم الاجتماع الديني: الإشكاليات والسياقات، ترجمة: عز الدين عناية، هيئة أبو ظبي للثقافة ٢٠١١م.

٥ – سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٥٥م.

٦ – عبد الله حسين، المسألة الهندية، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م.

٧ – عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، الطبعة الثانية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨١م.

٨ – غوستاف لوبون، حضارات الهند، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م.

ثانيا: المراجع الطاجيكية:

1- гулназар, адибонтоҷикистон, душанбе, 2002.
2- М.Турсунзода, қиссаи ҳиндустон, Нашриёти Давлатии Тоҷикистон, Сталинобод 1954.
3- Худойназар Асозода, Адабиётй Тоҷйк дар садаи XX, вазорати фарҳнги ҷумҳурии Тоҷикистон, Душанбе “Маориф” 1999.

ثالثاً: المراجع الفارسية:

١– پریسا سنجابی، روشن رحمانی: تورسون زاده، مرکز دائرة المعارف بزرگ اسلامی، ٤آبان ١٣٩٨هـ.ش.

٢- شروين وكيلي، گاندى، انتشارات داخلى مؤسسهى فرهنگى خورشيد راگا، امرداد ١٣٩٢هـ.ش.

رابعاً: المراجع الإنجليزية:

1- George M.William: Handbook of Hindu Mythology, Oxford University.

خامساً: المعاجم الطاجيكية:

1- Фарҳанги тафсирии забони тоҷикӣ, ҷилди 1, Академияи илмҳои ҷумҳурии Тоҷикистон, Душанбе, 2008.

سادساً: دوائر المعارف الفارسية:

١- دهخدا، لغت نامه، مؤسسهٔ انتشارات وچاپ دانشگاه تهران، چاپ دوم از دورهٔ جديد: ١٣٧٧هـ.ش.

سابعاً: الدوريات العربية:

١- سماح سلام، الاحتلال البريطاني في شبه القارة الهندية، مجلة المقتطف المصري التاريخية– العدد٤– مارس ٢٠١٠م.

٢- مُحَمَّد بن عبد الله السلمان، سياسة بريطانيا الاستعمارية للهند، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ملحق العدد التاسع، أبريل ١٩٩٣م.

ثامناً: الدوريات الفارسية:

١- حسين يزدانى وديگران، تحول مضمون "عشق به وطن" در شعر معاصر تاجيكستان، فصلنامهٔ تخصصى سبک شناسى نظم ونثر فارسى (بهار اد) سال دوازدهم– شماره سوم– پاييز١٣٩٨، شماره پياپى٤٥.

٢- حشمت السادات معيني‌فر، بررسي ريشه‌هاي نظام كاست در هند، فصلنامهء مطالعات شبه قاره، دانشگاه سيستان وبلوچستان، سال چهارم، شماره دهم، بهار ١٣٩١هـ.ش.

٣- علم خان كوچراف، هميشه با خلق ووطن، فصلنامه رودكى، شمارهٔ ٢٨، رايزني فرهنگى ج. ا. ايران در تاجيكستان، پاييز ١٣٨٩هـ.ش.

٤- مرجان علی اکبرزاده زهتاب، تحلیل منظومهء داستانی "از گنگ تا کرِمل" از شاعر معاصر تاجیک، میرزا تورسون زاده، فصلنامه علمی "پژوهش زبان وادبیات فارسی" شماره شصت وسوم؛ زمستان ١٤٠٠هـ.ش.

٥- مرجان علي اکبرزاده زهتاب، نگاهی به منظومهٔ تعلیمی– غنایی "حسن ارابه کش"، از میرزا تورسون زاده، شاعر تاجیک، فصلنامهٔ تحقیقات تعلیمی وغنایی زبان وادب فارسی، دانشگاه آزاد اسلامی، شماره هفدهم– پاییز ١٣٩٢هـ.ش.

تاسعاً: **الدوريات الإنجليزية**:

1- Azizi Rahman and others, The British Art of Colonialism in India: Subjugation and Division, Peace and Conflict Studies, Volume 25, Number 1, 5- 2018.

2- British Imperialism in India, The Age of Imperialism.

3- Fritz BlackWell, The British Impact on India, 1700–1900, World History: 1750–1914, Volume 13, Number 2 Fall 2008.

عاشراً: **مواقع الإنترنت**:

١-إيمان عطية، الهند: ٢٠٠ مليون منبوذ في ظل نظام طبقي صارم، جريدة القبس.
https://www.alqabas.com

٢- شاعر معاصر تاجيك، دانشنامهٔ جهان اسلامی. https://rch.ac.ir